مصطفى محمود



عنبر ٧

دار المعارف

مصطفى محمود

عنبر ٧

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

الوقت رخيص

فى مقهى المتبولى كل شىء رخيص.. الوقت رخيص.. والكلام رخيص.. والضحك رخيص.

تستطيع أن تدفع ثمن كوب من الشاى وتجلس.. فتأتى الحياة إلى مائدتك.. تأتى إليك آخر الأخبار.. وآخر الإشاعات.. وآخر النكت.. ويسعى إليك رجل ليمسح حذاءك.. ورجل آخر ليقرأ عليك موعظة.. وآخر يسحب لك قردًا.. وآخر يبتلع منشارًا ويحملك أنت وكرسيك على أرنبة أنفه.. ويقول إنه فنان يأكل أربعة أرغفة فى الفطور من عرق جبينه.

وعلى الرصيف بين كيزان الحلبة والطراطير وباعة الكشرى تجد نفسك جزءًا من «سينما سكوب» شعبى يتغير باستمرار.

الجرسون وهو يحمل على ذراعة ثلاث طلبات وشيشة وطاولة وطقطوقة ويترنح وهو يصيح «أيوه المضبوط معايا..أهوه» والمحامى الشرعى وهو يجلس لا يبدو منه إلا قفاه وقبضة يده وهى تروح وتجىء فى حلقات من الدخان.. القضية فى إيدى اليمين.. النفقة.. والمقدم.. والمؤخر.. والبهدلة كمان.. كله على الله وعلىّ.. هى دى أول قضية والا آخر قضية يا بو سليمان؟

وشلبى أفندى صاحب المونوكل والبابيون والمنشة.. ومكوجى الرجل بدكة سرواله التى تتدلى على الأرض. والعمدة والسمسار.. وبائع القلل.. والنشال.. ومدرس الخط.. ومأمور الضرائب.. والمأذون.. والشماس.. والعرضحالجى.. ومائة آدمى. منكفئون على الموائد يلعبون النرد ويتهامسون ويتشاجرون ويعلو شجارهم فنسمع بين قرقعة الدش والدبش كلماتهم المبحوحة.

– دى معاملة يا راجل.. ده كلام تقوله.. أردها أردها ازاى.. والشنب ده كله يروح فين.. دنا أقطع الدراع اللى تتمد لها!.. دى واحدة ما يتمرش فيها العشرة والمعروف..

خمس سنين.. وأنا شايلها فى عينيه هات يا زكى.. روح يا زكى.. اقبض يا زكى.. ادفع يا زكى.. أطلع يا زكى.. انزل يا زكى.. لما داخ زكى وغلب.. وآخر المواخر تعمل فى كده.. وعاوزنى أردها.. أردها ازاى. دا الطلاق فيها شوية.. دى عاوزة الدبح .. الدبح والكعبة الشريفة يا شيخ.. وحق المقام الطاهر.. وحياتك يا نعمة.. إنى بعت أهلى على الولية دى. وخربت بيتى وشردت عيالى.

بلاش تعاملنى أنا عامل ربنا.. عامل ضميرك.. وخليك حاكم عادل.. يرضيك خرابى.. يرضيكوا أنتوا يا ناس.. دنا زكى.. زكى أبو الدهب.. اللهم طولك يا روح.. زكى يطاطى لولية قليلة الأصل.. ويرجع فى كلامه.. طب والله لأنا رايح مخلص على الولية دى عشان ترتاحوا.. أوعوا بقه.. أوعوا سيبونى.. أوعوا ياناس..

وتتشابك حلقة الناس حول الزوج المهتاج.. فيجلس وهو يسب ويلعن، ثم تعود الضجة فتغرق فى قرقعة الدش والدبش من جديد..

ويتسلل إلى المقهى رجل ضامر هزيل يبيع الكتب.. وينادى عليها بصوت رفيع مخنوق..

ابتهالات.. أوراد.. استخارات.. خطب منبرية.. أحاديث محمدية.. تفاسير..

ويدور فى المقهى مرتين.. ثم يتوقف عند جماعة من إخواننا الأقباط ويهمس:

قصص الآباء اليسوعيين.. أقانيم حنا وبولص. وصايا القمص جورجيوس.. كلمات بطرس الناسك..

ويختفى فى الزحام ثم يعود للظهور ليدس فى يد كل واحد إعلانًا ويوشوش فى أذنه..

كتاب غرامى، اجتماعى تناسلى.. قصة امرأة باعت جسدها للشيطان.. صورة صريحة تعرفك بالمرأة على حقيقتها مائة صفحة من اللذة المتواصلة!.. أسرار الحياة الجنسية تكتب لأول مرة..

ويفتح الكتاب على رسم عار ويلوح به فى إغراء ثم يرفع عقيرته من جديد:

ابتهالات.. أوراد.. استخارات.. خطب منبرية.. أحاديث.. تفاسير..

ويختفى بين الموائد المزدحمة وسحب الدخان.. ويصفق زبون فى الركن. ويطلب قهوة على الريحة.. ثم ينسى الطلب وينام. وينام على وجهه الذباب ويتدلى فكه وتتراخى ذراعاه فى شبه غيبوبة..

والوقت يمضى.. والنهار ينتصف ويبدأ المقهى ينفض وتتحول الطبيعة النابضة إلى طبيعة ميتة.. الكراسى مصطفة

فى دوائر كل منها ينظر إلى الآخر كأنه يتكلم.. وعلى ظهر كل منها بقعة كبيرة من الزيت والعرق.. وعلى مقابضها بصمات متلاصقة.. وعلى الأرض آثار البلغ والأحذية والقباقيب والأقدام العارية وأعقاب السجائر.. وفى الركن الشيشة تستند إلى الحائط وجمراتها ما زالت تنفث الدخان.. وعلى الحوض عشرات الأكواب مقلوبة، والمعلم يفتح درج الحساب ويعد القروش والجرسون يجلس القرفصاء على الأرض وقد اعتمد رأسه بين يديه. وأمامه على الحائط تتدلى لوحة كبيرة مكتوب عليها بالكوفى.. يارب. وإلى جوارها صورة للحرم النبوى.. وكشف طويل بأسعار الينسون والقرفة والقهوة والشاى والمعسل.. وفى الناحية الأخرى.. يتكوم الحاج أمين العجوز.. وأمامه السواك والمنشة.. وقد استغرق فى نوم عميق.. وإلى جواره يجلس المعلم زكى.. الزوج الثائر لكرامته يلعب وحده أمام طاولة مفتوحة ويلقى بالزهر فى عصبية.. والصمت يلف المكان.. ويدوى له صوت فى الأذن.. صوت أعلى من الضجة.. ويتحرك المعلم زكى لينهض.. وفى رأسه نية مبيتة. إنه ذاهب إلى مطلقته وهو ينهب الأرض بخطوات مسرعة وقد كشر عن أنيابه.. وشدد القبضة على عصاه.. لن تعيش فطومة بعد اليوم، سوف تصبح فى عداد الموتى..

ويعبر الميدان وأعصابه تغلى.. ويقطع شوطًا حاميًا من

المشى فى عدة شوارع وأزقة بدون هدف.. ثم يبدأ فى الهدوء.. وتتبخر ثورته. وتذهب مع العرق. وتتراخى قبضته على عصاه ويقف عند قصاب ليشترى عدة أرطال من اللحم. ثم يقف مرة أخرى أمام قفص الدجاج ليشترى بطة.. ثم يضرب فى الأزقة حتى يبلغ سوق الفاكهة فيشترى لبشة قصب.. ويحمل هذه الهدايا كلها إلى بيت فطومة..

ويقف أمام الباب يدقه فى فرح حيوانى، وهو يبرم شاربه.. ويتخيل الليلة المقبلة.. وفطومة فى أحضانه وخدها يتلوى تحت شفتيه.. ويجرى ريقه بطعم ساخن طرى كطعم الملبن.. فيدق من جديد.. وقد تدفقت فى عروقه رغبة ملحة.. وفى نفس الوقت.. تدق ساعة الميدان..

لقد مضت ثلاث ساعات من الوقت.. الوقت الرخيص.

عنبر ٧

سنة كاملة قضيتها فى هذا المكان راقدًا فى عنبر كالخرابة فى مستشفى من عشرات العنابر مبعثرة فى الصحراء كعلب الصفيح.. بين مرضى يسعلون ويلهثون كأنهم فى عالم بلا هواء.

كل شىء هنا منظم.. حتى سعالى يعاودنى كل ليلة مع الفجر فيضبط المرضى عليه ساعاتهم.. فإذا انقطع يومًا أقبلوا علىّ بوجوه مصفرة ورفعوا عن رأسى الغطاء هامسين:

– وله.. وله يا عوف.. مال حسك مش باين ليه.. أنت ميت.

فأسعل فى حدة لأؤكد لهم أنى ما زلت حيًّا وبصحة جيدة. سنة بطولها.

ومضيت أفكر.. فى حين تململ الزميل الذى يرقد على السرير بجوارى وناولنى الصحيفة التى يقرأ فيها وهو يشير إلى خبر أحاطه بالحبر..

– شوف.. طلعوا دوا جديد للصدر..

ومسحت العرق عن جبينى ولوحت بيدى فى وجه الذباب الذى ينام على فراشى ويغطيه كحبات صغيرة من الفلفل.. وكان الحر لا يطاق.

وعاد صاحبى يلوح بالصحيفة:

شوف الدوا الجديد..

وعدت أمسح العرق من جبينى وألعن الدوا الجديد والدوا القديم..

– يا أخى سيبنى فى حالى..

– ده.. دوا.. حايخففك فى شهر..

– يا سيدى مش عايز أخف.. عايز أموت..

– أعوذ بالله..

– تصور نفسك راقد فى التلاجة دلوقت.. ومفيش عليك دبانة واحدة.. تساوى كام دى..

– أعوذ بالله.. فال الله ولا فالك يا شيخ..

– ليه يا سيدى.. وأنت آخرتك حاتروح فين حاتروح السيما.. ما أنت حاتروح التلاجة برضه..

– يا سلام على بوزك الفقرى..

ونظر إلىّ فى غضب ثم لوى شفتيه وترك الغرفة..

وجلست وحدى أنبش الأرض وأتأمل ظلى المكوم على الرمل.. وانظر من جانب عينى إلى الأفندى الوحيد الذى يلبس البيجاما بين المرضى وهو واقف فى الممر يغمز إلى الممرضة بعينه فتضحك وتبدو فى خديها غمازتان..

وضايقنى هذا الغزل فوقفت ألوح بيدى عند الباب:

– يا ست..

– إيه يا عوف عايز إيه؟

– دماغى..

– مالها دماغك؟

– عايز أسبرينه..

– طب روح على سريرك الأول وأنا أجيبلك إللى إنت عايزه.. ما تقفش كده زى غفير الدرك..

– غفير درك إيه يا ست.. هو أنا مش مالى عينك.. والا يعنى أكمنى مش لا بس بيجامة.. والا يعنى..

ورفعت صوتى ليصل إلى الطبيب ورحت أجعر:

– والا يعنى فيه خيار وفاقوس فى العنبر.. والا اكمنى ساكت ومش عايز أتكلم.. والا يعنى الطيب فى الدنيا دى ما ينفعش.. لا يا ست.. دنا راجل حر.. والـ..

وناولتنى الدواء لتسكتنى

ووضعت الأقراص فى شق جلبابى.. وخرجت أتمشكح أمام العنبر..

وكان فى انتظارى منظر طريف.. سرب من الزائرات عائد لتوه من الدرجة الأولى.. تتقدمه امرأة نحيلة ممصوصة.. تسير فى ألاطه وتصرخ بصوت مسرسع:

– أمال فين جهاز التكييف.. مش حقة المستشفى يحط جهاز التكييف فى كل أوده.. مش حقة الإدارة ترش ميه.. وتحط شماسى.. وتزرع الصحرا دى.. حرام العيان يعيش بالسنة والاثنين ما يشوفش حاجة خضرا.. حرام.. حرام..

وغمغمت الممرضات فى سخرية: حرام.. حرام.. حرام.

وجريت كالفأر أُفتح باب العربة للمدام وأراقبها وهى تجلس فى ألاطه على المقعد وتميل على صاحبتها هامسة:

– لازم أفوت على الكوافير.. شعرى بقى زى العنكبوت.. أوف.. إيه الحر ده.. السوتيان شادد على صدرى خالص.. معاكى إزازة الكولونيا..

– ازاى مدام ليليان تحط جوزها فى مستشفى زى ده.. ده منفى.. دى لازم عاوزه تقتله..

– أصله غنى أوى.. وعجوز..

– وبجلابية وطاقية تصورى!

وسكبت الكولونيا على يديها وراحت تغلسها عدة مرات وانطلقت العربة..

وحينما أفقت إلى نفسى كان إلى جوارى.. الشيخ حامد.. درويش العنبر الأبله.. وكان يلوح بالعصا فى وجهى وهو يهتف كعادته:

– قول يارب..

ووجدت نفسى ألطعه على قفاه فى غيظ:

– يا أخى طهقتنى.. يا أخى ربنا موجود فى كل مكان وشايفك وسامعك.. ومش عايز هلوستك دى.. جدد.. جدد شوية فى الفن..

– أجدد ازاى يا راجل يا ضلالى؟

– قول يا فلوس.. قول يا عمارات.

– أمشى انجر يا راجل يا ضلالى.. أنت ربنا مش حايفتح عليك أبدًا.. مش طالع منها عمرك يا كافر.. يا مجوسى..

ولوح بالعصا فى وجهى وبانت فى عينيه الشراسة..

فأسرعت هاربًا إلى غرفتى وسمعته يضرب النافذة بنبوته ويصيح:

- قول يا رب..

وكان الليل قد انتصف حينما ألقيت بنفسى على فراشى ورحت أنظر إلى شريط القمر المفضض الذى ينساب من النافذة.

وأغمضت عينى.. ولكنى ظللت مؤرقًا.. كان شخص ما يصفر تحت نافذتى ويتأوه بأغنية عاطفية.. وكنت أشم دخان سيجارته عند أنفى.. وقمت أسير فى خفة على أطراف أصابعى.. وخرجت من العنبر فوجدته جالسًا على دكة ورأسه مائلة إلى الوراء وعيناه ثابتتان على القمر الشاحب.. نصف مغمضتين.. هو نفسه الروميو المتيم أبو بيجاما فقلت ساخرًا:

- يا سلام على الجلالة يا سلام.. وخداك الجلالة أوى ياوله.

فانتفض كأنه يفيق من إغماءة:

- مين.. إيه ده.. فيه إيه..

- فيه عذول يا عاشق الروح.

- إيه الكلام الفارغ ده.. إنت إيه اللى جابك.

- الحب هو اللى جابنى.. الحب يا روحى.. الحب يا فاتك. يا قاتل.

وركعت عند قدميه بحركة مسرحية..

فضحك:

- أما بهلوان صحيح..

أيوه أضحك يا روحى.. ورينى سنانك اللولى.. وشفايفك الورد.. أضحك عشان قلبى يضحك لك.. لطفى.. روحى.. قلبى.. حبيبى..

- يا راجل اعقل..

- أنا اللى أعقل.. أنا يا صايع ياعواطلى.. ضحكت علينا الناس يا شيخ.. ماشى سرحان.. قاعد سرحان.. نايم سرحان.. على إيه ده كله.. واخده عقلك أوى يا خويا.. بتقولك إيه والنبى..

- يا راجل بلاش كلام فارغ..

- بتقولك.. لطفى.. طوفه.. طفطوفه.. ارحمنى.. باحبك.. خدنى معاك.. قوللى بحبك يا نرجس..

- لا.. دنت.. زودتها خالص..

يا راجل يا شخشيخة..يا راجل فوق لنفسك.. وفتح

عينيك.. مش كويس كده البنات يجروك من خطمك زى الخروف.. مش كويس كده البنات ياكلوك ويحلو بيك.. بص لنفسك فى المراية.. شوف وزنك إللى راح.. شوف وشك الأصفر.. لا بتاكل.. ولا بتشرب.. ولا بتنام.. وقاعد يا عينى إيدك على خدك زى الولايا.. مكوى يا ضنايا وسهران.. واللى كاويك رايح فى سابع نومه.. قلبى عليك يا روح أمك..

– بلاش قلة أدب يا عوف..

– حاضر يا روحى غلطان.. متأسف.. هات إيدك أبوسها وراسك كمان وخدك.. و..

– بلاش تهريج..

– أنا قلبى عليك.. العواطف هنا تجارة.. البنت بتكسب بيها الدكتور والعيان والموظف والمأذون.. وتضيع أنت فى الزحمة.. مش راح توصل أبدًا.. حاتوصل للمشرحة يدوبك. ما عندكش حاجة تبيعها فى السوق.. ما عندكش عمارة ولا عزبة ولا رصيد فى البنك.. ما عندكش إلا صحتك.. وعمرك.. وأيامك اللى بتعيشها بقطع النفس..

فأجاب فى ضعف وقد اصفر وجهه:

– وعايزنى أعمل إيه..

– عايزك تشوف صحتك.. تلتفت لنفسك..

– لكن أنا باحبها يا عوف..

– بتحب إيه حبك برص..

– بحب نرجس.. وهى بتحبنى أنا لوحدى..

– يا سلام على الطهارة يا سلام.. لايق عليك العبط والله.. أهو أنا دلوقت عذرتها..

– ليه..

– عشان الواحد عيب يشوف حمار زيك فى السكة مالوش صاحب.. ولا يركبوش.. ده أنت لقطة..

وكان العاشق قد ضاق بالحديث، فهب واقفًا..

– إيه رايح على فين؟

– رايح اتمشى فى الجبل شوية..

– حد يتمشى فى الجبل فى نص الليل..

– زهقان ومش جايلى نوم..

– طب خدنى معاك أحميك من الديبة..

وتأبطت ذراعه وسرنا نتسكع بين كثبان الرمل.. وبلغنا غرفة التليفون.. وكان عامل التليفون يغط فى نومه وجرس التليفون يدق على رأسه بشده.

وأسرعت إلى السماعة أرفعها.. آلو.. وكان الصوت يأتى

من الخارج، من مكان بعيد، من القاهرة..

- آلو.. عاوز الآنسة نرجس من فضلك..

وابتسمت وأعطيت السماعة الثانية لزميلى ليسمع ذلك الصوت الحبيب الذى يعشقه..

آلو.. دقيقة واحدة من فضلك.

وطلبت بيت البنات:

- آلو الانسة نرجس معاك يافندم..

ووضعت إصبعى على فمى محذرًا لطفى من الدخول فى المكالمة.

- آلو نرجس.. أنا عادل..

- أهلاً عدولة.. ازيك.. انت فين واحشنى خالص.. إيه كل الغيبة دى يا خاين.. دانت ما يتمرشى فيك العيش صحيح..

- ما يتمرشى فى العيش والويسكى.. مش كده..

- هىء.. ويسكى إيه بقى متفكرنيش.. دنا فى حالة يعلم بيها ربنا.. لا باكل ولا بنام.. ولا..

- يا سلام على الإخلاص..

- مش مصدقنى طبعًا عشان إنت خاين.. لكن ربنا عالم بحالى.. أنا اللى عايشة على ذكراك وخيالك..

مؤثرة يا بت.. قطعتى قلبى..

- بلاش تريقة يا عدولة.. أنا لازم أشوفك.. لازم أقابلك.

- لكن أنا مشغول اليومين دول..

- أخص عليك ونرجس حبيبتك.. النرجس العطشان مين يرويه..

- أنا أرويه يا روحى.. أرويه بدمى..

- لا مش عايزة دمك.. أنت دمك تقيل.

- أمال عايزة إيه..

- عايزاك إنت.. عايزة قمورى..

- طب نتقابل بكره.. استناكى فى البيت الساعة السابعة..

- واجى ألاقى قمورى مستنى.. وعلى نار..

- تيجى تلاقى قمورك.. ولا على باله..

- أخص عليك يا وحش.. جاك قرصة..

وكنت أنظر إلى وجه لطفى وهو يصغى إلى المكالمة.. وكان يشحب بالتدريج حتى أشرف على الإغماء.. فأسندته على ذراعى وغادرت الغرفة..

ولفحه الهواء الرطب فأفاق قليلاً.. وبدأ يتحامل على نفسه وسرنا معًا فى خطا متثاقلة إلى العنبر وملت عليه قائلاً:

– الظاهر أن الإخلاص منتشر أوى اليومين دول.. ولم يجب..

ومرت دقائق.. ونحن نسير كأننا نسير فى جنازة..ثم قلت أداعبه:

– معلهش يا طوفة.. كل حلم وأنت طيب.. بكرة تعيش ويركبوك تانى.. ما تستعجلش على رزقك يا أخى..

وظل صامتًا.. ثم قال فجأة بصوت حزين:

– بحبها يا عوف..

– انت بتحب عذابك.. بتحب مرضك.. وحرمانك.. عاوز تلم الناس حواليك عشان يقولوا يا عينى على شبابه.. يا عينى على جماله.. مسكين يا روحى عليه.. شوفوا المرض ما بيرحموش.. مفيش حد قلبه عليه.. حتى اللى بيحبها خانته.. عاوز تحس إنك ضحية.. إنت علاجك مش حقن فى العضل.. أنت علاجك حقن فى المخ..

– وألاقى فين حقن المخ بس..

– تلاقيها عندك إنت بس..

– مش معقول.. الحقن دى عندها هى يا عوف.. فى

إيديها هى.. سعادتى كلها فى إيديها..

وسكت قليلاً وحملق أمامه كأنه لا يرانى.. ثم أخفى رأسه بين راحتيه، وأخذ يبكى وينشج كالطفل.. وهو يغمغم بصوت مختنق: بحبها..

وصرخت أنا فى حنق:

– أنت راجل حمار.. إنت غاوى تياترو.. إنت ما ينفعش فيك إلا العافية..

وكنا قد بلغنا البوابة الكبيرة.. وكان على دكة البواب دورق كبير به ماء فأمسكت به وقلبته على رأسه.. فابتلت خصلات شعره الأسود وأخذ الماء يسح من وجهه.. ويختلط بالعرق والدموع..

ونظر إلىّ كطفل صغير غضبان..

كان صباحًا جديدًا منعشا.. وقد خفت حدة الحر.. وبدت زرقة السماء صافية ندية..

وجلست فى غرفتى اتشاغل بقراءة صحيفة.. وعيناى تختلسان النظر إلى نرجس الواقفة فى الباب وقد التوت سحنتها وفاضت حقدًا..

وكنت على يقين أنها تفكر فى قتلى.. ولهذا بادرت بإثارتها.

– يا ست..

– إيه.. عاوز إيه..

– عاوز راحتك..

– أبعد عنى وأنا أرتاح..

– لكن أنا ما أطيقش البعد يا ست..

– ما تطيقش.. جاك طاقة فى مخك يا بعيد.. لم لسانك.. وخش على سريرك..

– مانا يا ستى على سريرى أهوه. حا أعمل إيه كمان.. أخش فى المرتبة..

– إن ما سكتش يا عوف حاضرب تليفون دلوقت للدكتور ييجى يأدبك..

قلت أذكرها بمكالمة الليلة السابقة:

– التليفونات ما تبقاش دلوقت يا ست.. التليفونات تبقى بالليل.. الساعة اتناشر تتكلمى على كيفك.. تكلمى عدوله.. وحموده..

– إيه الكلام الفارغ ده..

وإذا ما جاش عدوله تقولى له.. جاك قرصة.. يا دوله..

وفهمت ما أقصده فجأة.. واصفر وجهها واحمر من الخوف والخجل والغيظ فى وقت واحد.. بينما تشاغلت أنا بالصحيفة التى أقرؤها.. وكأنه لم يحدث شىء ذو بال.. وسمعت وقع أقدامها وهى تبتعد عائدة إلى الأجزاخانة..

وناديت على رفيق حجرتى الصغير:

– وله.. وله يا سمسم..

فخرج كالجرذ من تحت السرير:

– إيه فيه إيه..

– أنت مخفى تحت السرير ليه؟

– قاعد فى الدفا..

– دفا إيه يا واد.. ده الدنيا نار..

– إنت اللى مخليها نار يا عوف..

– إزاى!!

- مزعل أختى ليه..

- أختك دى مين يا واد.

- أختى نرجس..

- الله.. هى بقت أختك خلاص..

وفجأة رأيته يمسكنى من خناقى:

- اسمع أنا بقولك.. إنت ما تزعلش أختى دى أبدًا..

وكان الشرر يتطاير من وجهه الصبيانى..

فقلت ضاحكًا:

- حاضر.. سمعًا وطاعة.. يا والدى.. أنا غلطان.. سامحنى النوبة دى..

وترك جلبابى ولكنه ظل ينظر إلىّ بحدة..

وقلت له عاتبًا:

- كده تزعل أبوك اللى بيجيبلك الكراملة..

والتوت سحنته وهو ينظر إلىّ:

- وانت تزعل أختى ليه..

- وانت إيش دخلك فى الحاجات دى..

- أنا عارف كل حاجة.. أنا مش صغير..

- عارف إيه..

- عارف إنك بتحبها.. ومش طايل.. وعشان كده بتزعلها دايمًا..

واحمر وجهه وسكت فجأة كأنما تكلم أكثر مما يجب على حين ظللت أنا أحملق فيه بدهشة ثم انفجرت ضاحكًا:

- بحب ايه يا واد.. مين اللى قال لك الكلام الفارغ ده.. مين اللى دخل الكلام ده فى دماغك..

- أنا شايف بعنيه..

- شايف إنى باحبها؟..

- أيوه..

- وعاوز تضربنى علشان بحبها.. وتاخدها منى وتهرب بيها فى الصحرا زى بدر لاما.. مش كده.. وتنصبوا خيمة.. وتجيبوا ميه من البير وتشربوا.. وتحلبوا الناقة وتعيشوا زى حسن ونعيمة.. أما رواية جميلة صحيح.. دنت روميو كبير ولا نيش عارف يا سمسم.. مش تقوللى كده يا أخى عشان أبارك لك..

وكان الطفل ساهمًا وأنا أروى هذه القصة.. كان يتخيل فعلاً أنه أصبح بدر لاما.. وأنه يجرى فى الصحراء على ناقة.. ونرجس فى أحضانه.. والواحة الخضراء تبتسم لهما من بعيد.. وظل على أحلامه حتى أيقظته بهزة عنيفة من كتفه قائلاً:

- إلا قوللى يا سمسم.. إنت اطاهرت والا لسه..

واحمر وجهه من الغضب ثم هجم عليّ وخمشني بأظافره مثل قطة هائجة.. ثم هرب..

ووضعت يدى على وجهى أتحسس قطرات الدم التى تسير من الخدوش الطويلة الحادة..

«حى.. موجود.. موجود.. وحد ربنا يا ضلالى وحد ربنا»

ضرب الشيخ حامد بنبوته على النافذة.. ثم دخل يتعثر فى جلبابه الطويل.. وجلس على السرير.. ووضع نبوته على حجره وهو يرمقنى بازدراء:

– أنا مش حاشرب عندك حاجة يا ضلالى.. ولا كباية ميه.. لأن كل حاجتك نجسة..

– اعقل بقه يا راجل يا شمام.. وبطل الوش إللى فى دماغك ده.

– أنا راجل شمام.. أنا..

– أمال أنت إيه.. راجل سارح بريالته وسايق هبله على الخلق يبقى إيه؟

– ماتخوضش فى سيرتى يا عوف لحسن ربنا يسخطك..

– يسخطنى إيه بس.. ما أنا انسخطت خلاص واتحكم عليه بعشرة الهبل إللى زيك.. هوه فيه بعد كده سخطه..

– ارجع لربنا..

– لا إله إلا الله..

– توب.. توب إلى الله.. انفض إيديك م الدنيا.. دى دنيا فانية.. لقمتها فانية.. وهدمتها فانية.. و..

– لكن يا شيخ حامد أنا بلاحظ أنك بتتخانق كل يوم على اللحمة..

– يا حى يا قيوم. اغفر لعبيدك الضالين.. اغفر لهم بقه.. عشان خاطرى.. شيل الحجاب من على عينهم..
وضرب بنبوته على الأرض:
وأخذته الجلالة فانتفض وأخذ يدور حول نفسه كمغزل صوف وهو يصيح:

شيله بقولك شيله
شيله بقولك شيله

ثم هدأ وجلس يمسح عرقه.. وأخرج من جلبابه كتابًا فى التسابيح وأخذ يقرأ فيه بصوت جهورى:

– يا غنى يا قوى.. يا قهار يا جبار يا ماجد يا أحد يا صمد.. اللهم يا نور النور.. استحلفك بالورق المسطور والرق المنشور أن تجعل فى قلبى نورًا وفى سمعى نورًا وفى بصرى نورًا وعن يمينى نورًا وعن شمالى نورًا وعن..
– على الله يا عم.. على الله.. يحنن.

فوقف مشدوهًا لحظة وهو يحملق فى وجهى ثم احتضن نبوته ومضى إلى الباب وهو يستعيذ:

– اللهم إنى أعوذ بك من ليلة السوء ومن ساعة السوء ومن صاحب السوء ومن جار السوء ومن كلمة السوء.. ومن محضر السوء..

وخرج..

وتمددت على سريرى أفكر.. وأشعلت سيجارة.. وفى قلبى ابتسامة عريضة.. وظللت أدخن مدة طويلة جاوزت ساعة لم أحس فيها بالزمن.. ثم أفقت على منظر لطفى وهو يقف فى النافذة وقد بسط أمامه لوحة وراح يرسم عليها بالألوان.

وتسللت إليه فى هدوء..ثم وقفت إلى جواره أهمس:

– قوللى بقه يا طوفه.. إيه آخر أخبار الغرام..

– بقالها يومين بتلف حواليه.. وتصالح فيه..

– سيدى.. يا سيدى.. وأنت طبعًا شادد فى العريض وسايق دلالك..

– لا أبدًا.. أنا زعلان فعلاً.. زعلان لأنها كدابة بتكدب عليه..

– وعاوزها ما تكدبش عليك.. أما عبيط صحيح.. عاوز بنت صغيرة ما تكدبش.؟ ليه.. هى تاكسى.. عاوز تركب

على بقها عداد.. يا بنى كلهم هنا كدابين.. وأنت كمان كداب زيهم..

– ليه..

لأنك لما جيت المستشفى.. قلت لكل أصحابك إنك مسافر البلد.. كدبت عليهم عشان ما يعرفوش أنك راقد فى مستشفى للسل وأنك عيان بالسّل.

– أنا معذور يا عوف.. لأن المرض ده وحش.. وما حدش بيطيق سيرته..

– وهى كمان معذورة.. لأن سيرتها بطالة ومحدش بيطيق يسمعها.. وكل واحد فى الدنيا معذور..

– ولما كلنا بطالين.. ما تسبنى أحبها يا أخى.. وآدى احنا بطالين زى بعض..

وسكت لطفى عند هذا الحد.. ثم عاد إلى الرسم.. وغمس فرشاته فى اللون الأسود وبدأ يوزع الظلال.. وكنت اتتبع أصابعه المرتجفة الضعيفة وهى تمشى على اللوحة..

وأفاق لحظة ونظر إلىّ نظرة صبيانية خبيثة ثم أخرج من جيبه مظروفًا:

– تعرف ده إيه؟

– إيه؟..

– جواب من نرجس..

وسكت لحظة ثم أردف كالطفل:

– مش حاوريهولك..

– بلاش.. ونا كمان مش عايز أشوفه..

ولكنه كان يتحرق شوقًا.. إلى عرضه علىّ.. وقال بعد دقائق:

– طيب أديهولك تقراه.. ولا تقولش لحد..

– أنا مش عايز اقراه..

– بلاش سخافة.. خد أهو اقراه عشان تتعلم ازاى كتابة الجوابات..

وأخذت منه الجواب.. وبسطته أمامى.. وأخذت أقرؤه بصوت تمثيلى متهدج:

حبيبى طوفه..

أبعث إليك بسلام أعطر من الورد والريحان.. وبتحية أرق من سلسبيل الماء..

مرت أيام وأنا لا أنام.. من خصامك وغرامك..

إن قلبى الذى لم يعرف سواك.. لا يستطيع أن ينسى هواك.. ولا يستطيع أن يخونك..

أنت روحى.. وأنا لا أستطيع أن أخون روحى..

لقد غابت عنى ابتسامتك فغابت عنى الشمس وأصبحت أعيش فى الظلام يا حبيبى..

إنى أبكى كلما سمعت أم كلثوم تغنى يا ظالمنى.. فأنت ظالمنى وهاجرنى وقلبى من هواك مجروح..

احترت.. واحتار دليلى معاك..

أشكى لمين ظلمك ليه. يا سارق من عينى النوم..

حاعيش على ذكراك.. وأموت ضحية هواك..

طوفه يا حبيبى

ليه خلتنى أحبك.

لقد كنت أعيش سعيدة خالية البال.. مثل الأطفال.. فعلمتنى الحب والهوى والجمال.. ثم تركتنى وحدى غارقة فى دموعى وأشجانى.. ونسيتنى.. وأنا ما زلت أهتف باسمك وأحلم برسمك.. طوفه.. ارحمنى.. ولا تطل فى تعذيبك.. وكفاية خصام..

المخلصة إلى الأبد

نرجس

وطويت الخطاب ونظرت إليه بابتسامة عريضة:

– مؤثر يا وله أوى الجواب ده.

– البنت فى الحقيقة غلبانة وكاتباه بتأثر عميق.

- أيوه كاتباه بتأثر عميق.. وطابعه منه عشر نسخ.. مش كده.

- إيه ؟!..

- طابعه منه عشر نسخ يا خيبان.. دى رابع نسخة أقرأها الشهر ده.

- يعنى إيه ؟!

- يعنى العشاق كتير ومفيش وقت تألف لكل واحد جواب.

-إنت كداب.

- حاضر.. أنا كداب.. سكت.. وقفلت بقى.

- إنت معندكش إنسانية.

- ومعنديش إنسانية.

- عوف..

- أيوه.

- إنت مالكش دعوة بنرجس.. مالكش دعوة بيها.. ولا تتكلمش عنها أبدًا.

- حاضر.. ماليش دعوة بيها.. والنوبة الجاية لما تيجى تسقينى جواباتها زى الشربة.. حاغمض عينى وأسد ودانى.

- إنت أصلك سيىء الظن بالناس.. وبتشوفهم كلهم بطالين.. لكن نرجس بنت طيبة.

- تمام.. طيبة وأصيلة وشريفة.. ومن نسل النبى.

وكان الغيظ قد فاض به حينما بلغت هذا الحد من الكلام.. وكان شارباه يتراقصان كشاربى الأرنب البرى.. فأشعلت له سيجارة وتركته ليستعيد هدوءه.. ودخلت إلى العنبر.. وأنا أفكر.

ولأول مرة بدأت أشك فى قيمة نصائحى.

إن الشطارة ليست كالثياب تلبس من الخارج.

ولطفى لن يتحول بنصائحى إلى رجل شاطر.

إنه فى حاجة إلى الخطأ.

وجلست على فراشى.. أدخن.. وانظر إلى ورقة النبض والحرارة.. وكان الليل قد بدأ يزحف.. والمصباح الصغير لا يكاد يضىء الغرفة الكالحة.

وذهبت أبحث عن السبرتاية وعن كنكة الشاى.. وأشعلت الشريط.. وملأت الكنكة بالماء.. ولكن اللهب ما لبث أن خبا وانطفأ.. وقلبت السبرتاية.. لم يكن بها نقطة سبرتو.. وكذلك الزجاجة.. كانت فارغة.

وكانت هذه هى المرة الثالثة التى تفرغ فيها الزجاجة

بعد ساعات من ملئها.

كان هناك حرامى سبرتو فى العنبر.

ودخل عم زكى.. المريض المحول من الليمان.. وخلفه العسكرى.. وكان يرقص.. ويغنى.. وعيناه وارمتان حمراوان كقدحين من دم.

ونظرت إليه فى ارتياب:

– عم زكى..

وظل يرقص. دون أن يلتفت إلىّ:

– أيوه يا بلدينا.

– بطل رقص وكلمنى.

– أيوه يا بلدينا.

– أمور اللومنجية دى مش عليّه.

– لومانجية إيه يا بلدينا؟

وعاد إلى الرقص.

وأمسكت به من كتفه فى غيظ:

– بص هنا.. قوللى السبرتو وديته فين؟

– سبرتو إيه يا بلدينا!

– إنت عارف سبرتو إيه.

– أنا مش عارف حاجة.

وعاد إلى الرقص.. ثم تهاوى على الفراش فجأة.. يلهث.. وبصق بصقة نصفها دم.. ثم بدأ ينزف من فمه.. بغزارة.. وأغمى عليه..

وأسرعت استدعى الممرضة والطبيب.. وأضع على رأسه كمادات من الماء البارد.

ومضت دقائق ثقيلة.. ثم أحسست به يتقلب.. ويفتح نصف عين.. وينظر إلىّ هامسًا:

– بلدينا..

– أيوه يا عم زكى.

– أنا اللى شربت السبرتو.

– إزاى.. إنت مجنون.

– عاوز أنام.. بقى لى سنة مش عارف أنام.

وعاد إلى السعال والنهجان.. وسكت فترة طويلة.. ثم أردف:

– إنت تعرف الأفيون؟

– لا.

– أنا عشت طول عمرى أشربه وآكله وأتاجر فيه.. كانوا يسمونى أبو النوم.

ونظر إلى السقف المنخفض وسرح.. ثم عاد يتحدث:

– ودلوقت بقيت لومانجى.. عندى سل فى صدرى.. وعسكرى.. على الباب.. راح النوم من عين أبو النوم.

مفيش أفيون يا بلدينا.. مفيش إلا الإزازة أم تلاتة صاغ.. أملأ بيها بطنى زى السبرتاية.. وأرقد زى القتيل.. أصلى راجل ابن حظ.

تشرب لك كاس يا بلدينا.

وأغمض عينيه متعبًا.

ودخلت نرجس.. وكشفت عن ذراعه الناحل.. وغرست فيه إبرة المورفين. وبدأ ينام..

وأشعلت سيجارة.

ومن خلف النافذة سمعت صوت لطفى الهامس.. وصوت نرجس المتهدج وهى تجاوبه.. ثم رأيت شبحهما يتلاصقان وهما يبتعدان فى الصحراء:

– طوفه.. بتحبنى ؟

كان صوتها يصل إلىّ من بعيد.. ولم أسمع بماذا أجاب طوفه.. ولعله كان ينكس رأسه فى خجل العذارى.

ولم أعد أسمع سوى أنفاس اللومانجى.. وهى تتردد مبحوحة كفحيح الأفعى.

وكان العسكرى ما يزال يقف على الباب.

وأغمضت عينى أفكر.. وسرحت طويلا.

كنت أشترى زجاجة السبرتو كل يوم فيشربها اللومانجى.. سل.. وسجن.. وأفيون.. وسبرتو أحمر.. فاضل إيه !

وفتح الرجل عينيه وضغط على يدى:

– ازيك يا بلدينا.

– يا عم زكى نام.. احنا ما صدقنا إن الدم قطع.

– أنام إيه يا بلدينا.. أنام على المورفين.. هو الأفيونجى ينام على المورفين عمره !.

– مش كنت نايم دلوقت؟

– كنت مسلطن يا بلدينا.. مسلطن.

– طيب `سلطن لك شوية كمان.

– اسمع.. قوللى.. مش ممكن البت تدينى حقنة كمان ؟

– حقنة كمان ازاى.. إنت مجنون.. دنت واخدها عشان النزيف.

– إن كان على النزيف ممكن أجيبه تانى.. شوية هز ودك.. الجروح تتفتح.. وأملا مبصقة كمان.

وبدأ يهز صدره.. ليجلب الدم من جديد.. فأمسكت به.. وقيدته بالفراش:

- إيه إنت مجنون يا عم زكى.. عاوز تموت نفسك عشان حقنة مورفين..

- يا سيدى أنا حر.. أموت نفسى.. أشنق نفسى.. أنا حر فى جتتى يا بلدينا.. هم حاطينك مخبر علىّ.. تكونش عسكرى تانى.. لابس مدنى.. يا ناس سيبونى يا ناس.. يا ناس دنا ابن حلال.. دنا..

وبدأ يبكى.. ويتشنج كالطفل.

- إيه بس يا عم زكى أمور العيال دى.. دنا صاحبك وحبيبك يا خويا.

- حبيبى.. بتقول حبيبى يا بلدينا.. ده مفيش حد بيحبنى أبدًا.. ده عمر ما حد حبنى فى الدنيا.. دول كانوا دايمًا يقولوا عنى مجرم.. وحيوان.

- أبدًا دول هم اللى حيوانات.. دنت راجل أمير.. وابن حلال.. وكلك إنسانية.

-أمال بابيع أفيون ليه.. بابيع السم للناس ليه.. لما كلى إنسانية.

- ظروفك جت كده.. يعنى هو انت بتبيعه بس..

ما انت بتشربه كمان.. وبتشرب عليه سبرتو أحمر.. وخل وقطران.

- أيوه تمام.. خل وقطران..

وسكت لحظة ونظر فى عينى فى تردد:

- يعنى مش زعلان منى عشان سرقت السبرتو.

- يعنى سرقت العزبة يا سيدى.. دنت عملت زى الحرامى الغلبان اللى سرق الكفن وشنق نفسه بيه.

- أيوه تمام سرقت الكفن وشنقت نفسى بيه.. طب ما انت راجل ابن حلال أهوه.

وعاد ينظر فى عينى ويهمس بصوت منخفض:

- تكونش بتشرب أفيون زيى.

- لاأبدًا.. ما أعرفوش وحياتك.

- أمال يعنى بتدافع عنى أوى كده ليه.

- عشان بحبك.

- بتحبنى.. كويسه دى.. وآدى واحد على آخر الزمن.. بيحبك يا عم زكى.

ومسح العرق عن جبينه.

وضرب يده فى شق جلبابه وأخرج علبة من الصفيح. فتحها بأنامله المرتعشة.. وناولها لى.

- لف لى سيجارة لف.

وتناولت العلبة.. وبدأت ألف السيجارة.. ثم أشعلتها.. ووضعتها بين شفتيه.

ومضى يدخن فى شراهة.. ثم أردف بعد فترة طويلة من الصمت:

- من تلاتين سنة يا بلدنيا كنت عيل صغير.. سنى عشر سنين يدوبك وكنت أكبر أخواتى.. وكانت أمى تسيب لى العيال كل يوم.. وتقول لى خد بالك منهم يا زكى.. كان أهلى يحبونى.. وكنت أحبهم.. وكانوا يدلعونى.. ويقولولى يا زكوكة.. روح يا زكوكة.. تعالى يا زكوكة.. خد يا زكوكة.. هات يا زكوكة.. وبعدين.

وضحك فى شراسة وهو ينظر من خلال الجدار.

- وبعدين بقيت مجرم.. عشان بصيت من خرم الباب.

وعاد يضحك.. وقد غطى عينيه.

- ما كنتش أعرف إيه ورا أخرام الأبواب.. كنت صغير.

وأغرق فى الصمت من جديد.

ومرت لحظات.. ثم عاد يتكلم فى صعوبة:

- كان بيجينا أيامها ضيوف كتير.. وكان فيهم واحد

لما ييجى.. أمى تنبه علىّ أنى ماجيبش سيرة لأبويا.. وكانت تاخده.. وتقعد معاه مدة طويلة فى الأودة. وتقفل الباب.

وفى مرة حطيت الكرسى وطلعت عليه.. وبصيت من خرم الباب.. وشفت أمى من غير هدوم.

وغطى عينيه.. ومرت لحظة رهيبة:

- أمى.. عارف يعنى إيه أمى..

وسكت.

وأمعن فى السكوت.. ثم عاد يتكلم فى صعوبة:

- وبعد كده عملت كل حاجة.. طفشت من البيت.. وسبت البلد.. ودخلت أصلاحية.. وملجأ.. وسجن.. وشربت الأفيون.. وتاجرت فيه.. وبقيت مجرم.. وحيوان..

ونظر إلىّ.. وضاقت عيناه.. حتى أصبحنا كثقبين.. وبدت عليه الشراسة.

- مالك.. ساكت ليه.. ما تتكلم يا بلدينا.

كان يجز على أسنانه من الندم ويود لو قطع لسانه الذى تكلم أكثر مما قدر له أن يتكلم.

وبدأت يده تنقبض وتنبسط فى تشنج.. وأخذ يرمقنى فى كراهية.

وحول وجهه إلى الحائط.

وانحنيت أمسح على جبينه.. وأهمس فى رقة:

– دى حاجات بتحصل فى كل الدنيا يا عم زكى.

– أيوه بتحصل لكن بعيد عن العيون.

– حظك جه كده.

– وليه ييجى كده يا بلدنيا.

– وليه يكون فيه سل.. وليه يكون فيه موت.. وليه أى حاجة بتحصل فى الدنيا.. وليه ما تريحشى نفسك من ليه.. وتعيش زى الناس اللى بيعيشوا.

– الناس ماشافوش اللى شفته.

– الناس ما بيبصوش من خرم الباب.

– أيوه.

وسكت.. كمن تلقى ضربة على رأسه.

– وبعدين.

– وبعدين تشيل عينك من خرم الباب.. وتبص للدنيا حواليك من تانى زى خلق الله.

– أبص من تانى.. ما خلاص يا بلدنيا.. الدنيا بتاعتى انتهت.. مافضلش فيها غير عسكرى وكلبش ونمرة نحاس.

–أبدًا ما نتهتش.. لسه قدامك عمر طويل.. وحاتخف..

وحايجيلك إفراج.. وحاتطلع.. وحاتعيش من جديد.

–وحاكبر.. وحابقى شاطر.. وحاتجيبلى لعبة.

وابتسم وضحك فى مرارة.

– أنا بقيت راجل عجوز يا بلدينا.. وعضمى نشف من الغلب دور على نفسك انت.

– ما احنا فى الهوا سوا.. ما احنا اخوات يا عمى.

–اخوات.. حلوه دى.. كلامك حلو يا بلدينا.

ونظر إلىّ فى وداعة:

– بتقول احنا اخوات.. حلوه دى يا بلدنيا.. كلمة زى الأفيون تمام.. ننام عليها بقى.

ولف نفسه فى الغطاء.. وأغمض عينيه كالطفل. وتراخت أهدابه.

ومرت دقائق من الصمت.. وأحسست أنه بدأ ينام.. فخرجت أتمشى فى الممر.. ثم دخلت غرفتى وألقيت بجسدى المتعب على الفراش.. وتحت نافذتى سمعت لطفى يصفر بفمه لحنًا رقيقًا.. وشممت دخان سيجارته.

وأغمضت عينى.. وبدأت اليقظة تمتزج فى رأسى بالحلم.. وعبر خيالى شبحان نحيلان.

كنت أعرفها جيدًا.

كان أحدهما يعذبه حبه.. والآخر تعذبه كراهيته. وكنت أحس أنى شبح ثالث.. لا أعرف عنه شيئا. وبدأ كل شىء يذوب فى ضباب النوم.

- قوم اصحى.. قوم.. انت يا سيدنا.. فتح عينك.. قوم.

كان هناك أكثر من صوت واحد يتكلم فى أذنى.. وكانت دوامة النوم تجذبنى كلما حاولت رفع رأسى فأغيب فى هوة الأحلام من جديد.. وتختلط الأصوات فى سمعى بشىء مثل قرع الطبول.

- قوم اصحى.. يا جدع.

وفتحت أجفانى فى بطء كأنها بوابة صدئة طال إغلاقها..

وكان أمامى أكثر من ثلاثين مريضًا.. كلهم أفواه مفتوحة.. وأيد تلوح فى الهواء.

- قوم.. قوم اصحى.

وطار النوم من عينى فجأة.. ووجدت نفسى أقفز فى ذعر واعتدل فى فرأشى وأنا أهتف:

- إيه.. إيه فيه إيه..

- فيه اضراب.

وبدأت أمسح جبينى وأحاول أن أفهم.

- إضراب إيه.

– إضراب عن الأكل.

وعدت أمسح على جبهتى.. وأنا أتمتم فى بطء:

– لكن دنا كلت.. إضراب ازاى.

وبرز مريض من زعماء المجموعة ليجاوبنى بعنف:

– بقى اسمع يا عوف.. بقى انت ما تخرجشى على الإجماع.. إحنا قررنا الإضراب.. يعنى الكل يضرب.. يعنى الكل ما ياكلش.

– لكن دنا كلت يا جماعة.

– لا.. إنت ما كلتش.. إنت مضرب عن الأكل... ورميت غداك فى الزبالة.. فاهم.

– حاضر.. أنا ما كلتش.. ومضرب عن الأكل.. ورميت غدايا فى الزبالة.. فيه حاجة تانية.. تسمحوا لى أنام بقى.

– تنام ازاى.. إنت لازم تقف معانا للنهاية.. الدكتور جاى.. ولازم..

وظهر الدكتور فى نهاية الممر.. تتدلى من فمه لفافة تبغ. وانفجر المرضى كلهم يتكلمون فى وقت واحد:

– شايف الأكل يا بيه.. شايف الرز اللى نصه حصى.. والشوربة اللى زى مرقة القلقاس.. والعضم.

وخرج رجل عجوز من الصف فى يده أروانة عدس وضعها تحت أنف الطبيب:

– والعدس وحياتك يا بيه.. جايبين فيه جرادة.. بص سعادتك.. جرادة.. جرادة بحالها.

– إزاى ؟.

– أهه وحياتك يا سعادة البيه.

– والقرع.

ووقف الطبيب يمصمص شفتيه اشمئزازًا.

– والعيش.

– والبيض.

وكسر المتكلم بيضة فى طبق.

– وده أكل العيانين الغلابا.. اللى مالهومش غير ربنا.

وكان من الواضح أن الطبيب فى لخمة وأنه يواجه حملة لم يتأهب لها.

ووقف يفرك يديه فى ضيق ويبحث عن حل.

– لكن ده مش معناه إضراب.. مش معناه إضراب أبدًا.. انتو تاكلو.. وتكتبوا شكوى.. واحنا نحقق ونجازى الطباخين.. لكن كده ما ينفعش.. ما ينفعش.. ثم أنا كمان ما أقدرش أرد على خمسين بيتكلموا فى بق واحد.. ثم ده مش نظام.. ثم..

– يا بيه يرضيك إن احنا نموت من الجوع.. شوف

دفترى.. بقالى سنة بتعالج.. نقصت فى الوزن.. وكله من الأكل.

ونظر الطبيب إلى صاحب الدفتر فى حدة وهرش رأسه. محاولا أن يتذكره:

- أيوه أنا افتكرتك.. مش أنت فتحى.. مش انت اللى حققنا معاك عشان بتسكر.. وبتلعب قمار فى العنبر.. مش انت اللى طلعوك من البير سكران الشهر اللى فات.. تصوروا يا إخواننا مريض.. يشرب.. ويلعب قمار.. يلعب بحياته وصحته.. حتى أقراص الفيتامين إللى بنكتبها له بيلعب بيها قمار.. كان ناقص يحط معدته فى طبق ويلعب عليها.

وتحمس الطبيب وقد وجد حلا يخرج به من الأزمة.

- وبعد كده يشتكى من نقص الوزن.. ويقول الأكل.. أكل إيه..؟.. مش عاجبك الأكل طبعًا.. عاوز مزة.. مش كده.. مش كده يا سى فتحى.. عاوز مزة.

وتلفت الطبيب حوله فى وجوه المرضى:

- ويصح برضوا تمشوا ورا واحد زى ده وتطاوعوه.. وتضربوا.. ده برضه هو النظام.. أنا عارف إن العنبر ده مشاغب.

- المسألة مش مسألة عنبر مشاغب.. المستشفى كله

بيشتكى.. والأكل وحش.

- احنا بنصلح الأكل باستمرار.. وبنجتهد آخر جهدنا.. لكن انتو لازم تمشوا على النظام.. فاهمين.. النظام من فضلكو.. كل واحد يروح على سريره وياكل.. وأنا حاعمل تحقيق فورًا فى شكاويكم.. وانت يا سى فتحى خد دفترك وروح على سريرك.. ومش عاوز مشاغبة.

ونظر إليه نظرة حادة ثم مضى مسرعًا إلى بيت الأطباء. وهو يخطف خطواته.. كأنه يخشى أن تنبت مشكلة أخرى تلحق به فى الطريق.

وكان العنبر يغلى من الغيظ.. والكل ينظر إلى فتحى على أنه سبب فشل الإضراب.

- يعنى يا سى فتحى كان لازم تشتكى من الوزن فى الساعة النحس دى.

- يعنى كان لازم تعمل زعيم وتجيب لنا الشبهة.

- ما كنت تروح تشرب خل وتسيبنا فى حالنا يا أخى.

وكان مريض آخر يميل على الرجل العجوز صاحب أروانة العدس هامسًا:

- إدينى الجرادة بقى خلينى أمشى.

- ما تمشى يا بنى وأنا حايشك.

– إدينى جرادتى مش أنا اللى صايدها.

ووقفت أبتسم وأنا أرقب المعركة تنفض والحماس يبرد. والمظاهرة تنحل إلى أفراد.. كل واحد مكوم على فراشه.. يجذب الملاءة فى عصبية أو يدخن أو يهز ساقيه. والصحراء تمتد أمام الجميع كبساط ساخن تلسعه كرابيج الشمس.. ومن خلف الكثبان الرملية البعيدة.. لا يبدو شىء.. سوى سماء باهتة مصفرة.. لا أثر لآدمى.. أو حيوان.. أو شجرة.

كان كل شىء يبدو ممكنًا فى هذا الخلاء الموحش. أن يمتنع المريض عن الأكل.. أو يأكل مخدرات.. أو يصلى.. أو يعشق.. أو يفقد عقله.. أو يتحول إلى فيلسوف.

كان كل شىء يبدو ممكنًا.

وجلست على الدكة واجمًا. وقد وضعت ساقًا على ساق.. وعلى بعد خطوات منى كان عمود التلغراف يزن كأن به عش نحل.. وكان صاحبنا المريض يتسلل من العنبر حاملا الجرادة من جناحيها.

وحينما عدت بعد ساعات إلى سريرى كان هناك صوت ثالث.. غير صوتى وصوت الراديو.. صوت يخشخش فى الركن.

واكتشفت أن المريض الجديد الذى دخل محمولا على

محفة منذ قليل.. يتنفس.. وأنه يحدث هذه الخشخشة برئتيه الهالكتين كزوج من الغرابيل.

ولم أكن أعلم عنه شيئًا سوى اسمه. فاقتربت على أطراف قدمى وملت عليه هامسًا:

– جرجاوى.. مالك.. عاوز حاجة.

فلم يلتفت.. ولم يتحرك من مكانه وإنما حرك عينيه فى محجريهما.. ونظر إلىّ برهة.. ونطق كلمة واحدة:

– أشرب.

وكانت نظرته اليائسة تدل على أنه رجل تعود أن ترفض كل طلباته.

وذهبت إلى النافذة وعدت بكوب فى يدى ملآن لآخره بالماء.. وأسندته على ذراعى وسقيته.. وحينما أراح رأسه على الوسادة مرة أخرى كان يتصبب عرقًا.. وكانت الوسادة مبللة فى رقعة واسعة بحجم رأسه.

وتشجع قليلا.. وحرك عينيه فى محجريهما حتى واجهانى بنظرة ثابتة يبدو فيها طلب آخر.

– عايز حاجة كمان يا جرجاوى.

وظل ينظر فى وجهى ثم قال:

– عايز شوية هوا..

فنقلت سريره حتى أصبح تحت النافذة.

وكانت هذه الكلمات القليلة كافية لتوثيق التعارف بيننا فابتسم، وبانت فى فمه الواسع أسنان مكسوة بطرابيش من المعدن:

- أنا من جرجا.

- ولاد عم والله.. وأنا من المنيا.

وأخذنا نتبادل التحيات والمراحب مدة.. ثم عادت الخشخشة.. وقال وهو يشير إلى صدره:

- أصل أنا واخد شوية برد..

- معلهش كلنا على دى الحال..

- الحكيم قال دول شوية برد.. تنام لهم جمعه ويروحوا، حاكم أنا عمرى ما رقدت، ولا شفت العيا.

وابتسم ابتسامة باهتة وأردف:

- أنا زمان ونا صغير جيت من جرجا لمصر ماشى.

وسكت لحظة ثم أخرج إصبعه من النافذة مشيرًا إلى الهواء:

- شايف مصر دى كلها.. أنا اللى بنيتها بدراعى.. كل عمارة رصيت فيها طوبة.. وشلت شكارة جبس ودكيت حتة أرض.. وسويت جدار.

ولوح بذراعه الخشنة فى الهواء:

- الصعايدة ياعم هم اللى بنوا ده كله.

وكان يبدو أنه سعيد لأنه بنا ده كله.

وتصبب العرق على جبينه.. وفتح فمه ليتكلم.. ولكنه سكت ولم يقل شيئًا.

- عاوز حاجه يا جرجاوى.

ولم يجب.. وظل يبحث عن الشىء الذى يريده.. ثم تحركت عيناه فى محجريهما.. ونظر إلىّ قائلا فى بساطة:

- عاوز أشرب.

وناولته القلة.

وظل يكرع.. والماء يطفح على جلده فى سيول من العرق كأنه إناء مثقوب.

ثم أراح ظهره على الوسادة.

وجذب نفسًا طويلا لم يسعف رئتيه الجائعتين للهواء فمضى يلهث.. وأشار إلى النافذة محاولا أن ينطق من خلال اللهاث.

- عاوز.. عا.. وز

- أيوه يا جرجاوى يا خويا.

- عا.. وز.. شوية.. هوا..

وكان سريره بجوار النافذة.. وكانت الستائر مفتوحة.

وكان الهواء يمرح فى الغرفة.. ولم يكن هناك سبيل إلى فتح نافذة أخرى فى الجدار.

- عا.. وز.. شوية.. هوا..

وظل يتهته.

ثم بدأ وجهه يزرق.

وخرجت من فمه شهقة طويلة مسموعة غاب بعدها عن الحياة.

ونظرت إلى عينيه.. اللتين كانتا تستنجدان من لحظة.. فلم أجد فيهما شيئًا.

مات الجرجاوى الذى بنى مصر.. كانت أبعد آماله أن يشرب.. ويتنفس.

وجذبت على جسده الملاءة.. ووقفت صامتًا ثم انحنيت، وقبلت جبينه.

وتجمدت فى مكانى إلى جوار النافذة.. ومضى وقت لا أدرى كم دقيقة.. ولا كم ساعة.

ودخل لطفى.. وحملق فى الغرفة.. وفى وجهى.. وفى السرير المغطى بالملاءة.. ولم يلحظ شيئا لأنه قال بنغمة طروب:

- وله يا عوف.. أنا حاتجوز.

وجلس على السرير إلى جوار الميت وأردف كالطفل:

- أنا حاتجوز.. سامع.. مش تقوللى مبروك يا أخى.. ولم أجب وظللت أحملق فى وجهه.

وعاد يتكلم فى عصبية:

- أنا حاتجوز نرجس بكرة.. أنا عارف إنك مش موافق.. لكن هى بتحبنى.. وأنا بحبها.

وظللت صامتًا.. وصرخ لطفى:

- جاوبنى.. انطق.. قول إنك حمار زى ما بتقول كل مرة.

وظللت صامتًا.. وسكت لطفى كأنه تلقى لطمة.. ثم خرج مغضبًا.

ومضيت أحملق فى الرقعة الصغيرة من الفراش حيث كان يجلس رجل يرقص من الانفعال.. إلى جوار جثة ملفوفة فى ملاءة من الدمور.

ومضى اليوم الخامس على إرسال الإشارة التلغرافية إلى شيخ الحارة فى جرجا حيث يسكن الجرجاوى.. ولم يصل أحد لإستلام الجثة.. واعتبرت إدارة المستشفى أن الجثة بدون أهل وأوصت بدفنها فى مدافن الصدقة.

وجلست أنتظر عربة الموتى وإلى جوارى زائر من شبين لاستلام أحد أقاربه.. وكان يحمل فى يده صرة بها عنب.. يقزقز منها حبة بحبة.. ويحكى لى قصة خاله:

– بالك خالى ده.. ما كانش حد قده فى البلد.. ماكانش حد يملا عينه أبدًا.. كان راجل طول بعرض قد الحيطة.. يقول للأسد قوم وأنا أُقعد مطرحك.. مين كان يصدق إنه يموت بصدره!

وسكت وهو يلوك حبة من العنب فى فمه ويفكر:

– بالك فيه حاجة بتفضل فى الدنيا دى؟.. أبدًا كله بيروح عاطل مع باطل.. هو خالى ده ياما زرع.. وياما جمع وياما اشترى طين.. وياما حوش فلوس.. والآخر إيه فضل له من ده كله.. مفيش غير الركعتين اللى صلاهم.. والورثة خدوا الباقى.. أنا يا عبد العال حاينوبنى فدانين من عرق

جبينه.. وآدى حال الدنيا.. والله يرحمك يا خالى.. لك عندنا تربة مبنية بالحجر ولها حوش ومندره.. بنيتها بايدك.. واحنا برضه اللى حانقعد فيها.. ونربع فى مندرتها.

وشعر بالراحة بعد أن فلسف الدنيا بأنها لا شىء وخص نفسه بفدانين من عرق جبين الميت.. وانشغل بالعنب من جديد.

وأقبلت العربة ومعها اثنان من الحانوتية وحملت الجثتين وركبنا خلف السائق.

وكان الرمل يسفع وجوهنا طول الطريق.. والحانوتية الاثنان يدخنان فى مزاج واستغراق.. وصاحبى يأكل العنب ويتحدث عن خاله.. وأنا أعتمد رأسى بين كفى.

وسكت صاحبى فى منتصف الطريق وبدأ ينام.. وسمعت الحانوتى السمين يقول لزميله:

– تعرف الميت اللى دفناه امبارح.. مش لقيت فى بقه تلات سنان دهب.

– وعملت فيهم إيه؟

– ما أخبيش عليك.. خلعتهم.. قلت حرام أسيبه يقابل ربنا كده وفلوسه فى بقه.. ليروح جهنم.. وتبقى فى وشى.

– خيرك على الحى وعلى الميت يا صالح يا خويا.

وضحكا.. وتصاعد للتبغ الذى يدخنانه رائحة غريبة.

وبدأ الطريق يتلوى والعربة تترنح.. والحانوتيان ينامان على بعضهما بعضًا من السطل.

وفى نهاية المشوار.. عند مدافن الصدقة كان عم صالح الحانوتى عند باب العربة ينظر فى الجثتين.. ثم يحمل إحداهما إلى حفرة عليها لوح من الحجر.. وجذع صبارة ذابلة.

وجلست على مقهى فى طريق العودة أشرب كوبًا من الشاى.. وعلى فمى ابتسامة واسعة.

لقد أخطأ الحانوتى المسطول وحمل جثة الخال إلى مدافن الفقراء.. وترك الجرجاوى لتذهب به الصدفة إلى شبين حيث يدفن فى قبر جديد له حوش ومندرة.

لقد وجد الجرجاوى أخيرًا من يزوره حينما أصبح ترابًا.. بعض العزاء يا جرجاوى يا غلبان.. لم تجد شربة الماء فى حياتك.. وسيأكل زوارك الكعك على روحك.. كل يوم جمعة.

واتسعت الابتسامة فى فمى.. ثم تحولت إلى ضحكة تعسة.

كنت أشاهد لطفى من النافذة.

كان يذرع الصحراء أمامى وينبش الرمل بقدميه وهو زائغ البصر لا يستقر لحظة واحدة فى مكان.

وكنت أفكر فى أحواله.

لقد تزوج من نرجس.. ومضى على زواجه شهران تعيسان وهو شارد مثل فراش قصوا له جناحيه.

لم يكن سعيدًا فى حبه.. ولا فى زواجه.

كان يبكى.. وكان يضحك.. وكان يهذى.. وكان يقول: أحبها.. أعبدها.

ومع ذلك.. كنت أشك على الدوام فى أن ما به هو الحب.

ونظرت إلى الرمال.. بعيدًا.. حيث يقف.. وتلاقت نظراتنا.. وأقبل ناحيتى فى مشية بطيئة ذاهلة.. حتى بلغ باب الغرفة.. وتوقف ينفض رماد سيجارته..

وكان شارباه يتراقصان فى عصبية.

وتركته يجلس على الفراش ولبثت صامتًا.. أراقبه وهو يدخن.. وينفخ.. ويهز ساقيه.

ومرت دقائق ثقيلة.. ثم قال فجأة:

- أنا تعبان يا عوف.. تعبان.. مش عارف إيه أخرة ده كله..

- لازم نمت امبارح من غير غطا.. معلهش.. اشرب كباية حلبة ونام.. وانت تصبح كويس.

- بلاش هزار.. إنت عارف إنى باتكلم جد دلوقت..

- وأنا كمان بتكلم جد..

- إنت مش بتحترم آلامى.

- آلامك إيه يا طوفه يا حبيبى.. ده انت أسعد إنسان فى الدنيا.. حبيت لدرجة الجنون.. واتجوزت اللى حبيتها.. وبعد كل السعادة دى واقف على عش حبك تندب زى الغراب.. وتقول تعبان.. إلحقنى.. مش عارف أنا رايح فين.. مش عارف إيه أخرة ده كله..

أعمل لك إيه طيب.. أجوزك واحدة ما بتحبهاش.. والا أعمل لك إيه..

- مش عارف..

- تبقى تشرب حلبة.. كل الناس إللى ما بيعرفوش حاجة.. بيشربوا حلبة.

- إيه.. هو.. ده.

وبدأ عليه اليأس.. وسكت لحظة.. ثم أردف فى حزن:

- نرجس مش بتحبنى يا عوف.. وده هو اللى معذبنى.

- إزاى بقه.

- نرجس لها ماضى طويل.. ولها علاقات كتيرة.. وأنا مش أول واحد فى حياتها.. ومش معقول حاكون آخر واحد. نرجس كدبت علىّ.

- إنت اللى كدبت عليها يا لطفى.. إنت اللى قلت لها باحبك.. وانت مش بتحبها.. وعمرك ما كنت بتحبها. إنت حبيت واحدة تانية فى دماغك.. واحدة زى الملاك مالمسهاش راجل.. أبوها نبى.. وأمها مريم.. إنت ظلمتها. إنت أنانى.

- أنانى ازاى.

- أنانى فى عواطفك.. بتفصل الناس على المقاسات اللى تعجبك.. وتحبهم.. بتنسى دايمًا إنك مريض، وإن الناس بتحبك بعيوبك.

- أنا مش كده.. أنا مش كده أبدًا.

- إنت عاوز تغسل نرجس من ماضيها قبل ما تحط إيدك فى إيدها.

- أنا مش كده.. أنا عمرى ما ظلمت حد.. أنا عشت طول حياتى فى حرمان.

- المحرومين هم أقسى ناس فى الدنيا.

- إنت تفكيرك غلط.

- بالضبط.. لأنه مش من المقاس المناسب.. لأنه مش متفصل حسب طلبك.

- إنت دايمًا تصدمنى.. إنت نفسك قلت لى على نرجس كدابة.

- انتو الاتنين كدابين.. لكن هى أشرف منك.. لأنها بتكدب على الناس بس.. إنما انت بتكذب على نفسك كمان.

- إنت مش طبيعى النهارده يا عوف.. أنا عمرى ما سمعتك بتتكلم بالشكل ده.. مش معقول أكون إنسان وحش بالدرجة دى.

- إنت مش وحش.. إنت صغير.. إنت بقالك ست أشهر عايش معانا تاكل وتنام.. لكن عمرك ما كنت معانا.. كنا بنفرح كلنا.. وانت قاعد تعيط على حبك.. وكنا بنموت.. والنقالة تشيل مننا تلاتة.. وانت قاعد فرحان بالحضن اللى خدته بالليل.. كنت لوحدك دايمًا.. واللحظات القليلة اللى فقت فيها للناس اللى حواليك.. كانت صدمات بالنسبة لك.. كانت حاجات جديدة.

- أنا مش فاهم حاجة.

- ومش حاتفهم حاجة.. لأنك بتتكلم لغة تانية غير لغتنا.. بتتكلم إنجليزى.

- إيه ده.

- إنت عايش فى نفسك.. إنت مش بتحب.. إنت بتمر بحالات عصبية.

- إنت لازم شارب حاجة.. مش معقول تقول الكلام ده وانت فى عقلك.

- أنا مش شارب حاجة يا طوفه يا خويا. إنت اللى سكران.

- مش معقول.. إنت عارف قبل كل الناس إنى بحبها.. وعارف قد إيه بحبها.

- هى مين ؟.. إنت بتحب تصوراتك.. وبتكره تصوراتك.. وبتعشق خيالك وتخاف من خيالك.. إنت بتعيش أربعة وعشرين ساعة كل يوم مع نفسك.. إنت بترسم مش بتحب.. واللوحة مش عاجباك.. وعاوز تقطعها.. ودى الحكاية كلها..

- إيه ده.. انت بتخرف.

- جايز.

- إنت ضايقتنى جدًا.. جدًّا.. بكلامك.

- اشرب حلبة.. كل الناس اللى بيضايقوا من كلامى بيشربوا حلبة.

وكان الغيظ قد بلغ به غايته.. فسكت وهو يجز على أسنانه وجذب أنفاسًا طويلة من سيجارته.. ثم قام فجأة.. وخرج.

وبقيت وحدى أفكر، وسرحت.. وأغمضت عينى. ومرت دقائق أفقت بعدها على صوت التمورجى وهى يمسح الكومودينو ويناولنى صرة.. تذكرتها على الفور. فقد كانت صرة المرحوم الجرجاوى.. وكان بها رغيف جاف وبصلة.. وهى كل التركة التى خلفها.

وجلست فى فراشى واحتضنتها ولم ألحظ الساعات التى مرت بى وأنا فى جلستى لا أكاد أتحرك.. ولم ألحظ نرجس التى دخلت الغرفة وأضاءت المصباح.. لم ألحظها حتى اقتربت منى وهزتنى من ذراعى.

- مالك ياعوف.

ونظرت إليها كأنى أراها لأول مرة.. وأجبت فى خفوت:

- مفيش.

- مالك.. تعبان؟.

- لا مفيش حاجة.. بس نعست شوية.

وكان معها مفرش تشتغل فيه بالإبرة.

ووقفت إلى جوارى تشتغل.. وظللت أنظر إلى وجهها كانت جميلة.. مضيئة.. وكانت عيناها حزينتين.

وقلت لها برقة:

- سرحانة ليه يانرجسة.. فيه حاجة مزعلاكى.

- الدنيا كلها مزعلانى.

- دوسى على الدنيا يا عروسة.

- الدنيا داست علىّ يا عوف.. وداست على كل الحاجات الحلوة اللى كنت بحبها.

- إيه الكلام ده.

- انت نفسك قلت لى مرة إنك عجوزة ووحشة.

- كنت باضحك زى عاداتى.. وانتى عارفه.

- لا.. لا.. كنت بتتكلم جد.. وكان كلامك صحيح.. أنا فعلا عجوزة ووحشة.. لكن مش ذنبى يا عوف.

أنا اتقتلت ألف مرة.. ما بقاش فى روح.. بقيت جسد وجسد متعذب.

إنت ماشفتنيش من عشر سنين.. وأنا طفلة بحب الناس وأصدقهم.. كنت حاجة تانية.

- وإيه اللى غيرك.

- معرفش.

وسكتت على مضض ثم أشارت بإصبعها إلى المصحة وقالت:

- بص حواليك.. فيه حد يعيش فى الدنيا دى ولا يتغيرش مرضى كلهم بيموتوا.. كلهم فى حمى.. أطفال.. وشبان وعجايز وأنا وحيدة بينهم.. حلوة وصغيرة.. وكل واحد يقوللى خليكى جنبى شوية.. عاوز أحكيلك.. ويحكيلى حياته وعذابه.. بعدين يقول لى بحبك.. بحبك يا نرجس.. عشر سنين وأنا عايشة فى حب.

ونظرت فى وجهى وقالت متسائلة:

- أنا معرفش المرض بيعمل فيكو إيه.. بيحرق أعصابكم.. بتحسوا إن عمركم قصير.. بتبقوا نوع تانى غير باقى الرجالة.. تبقوا سخنين.. هه؟.

وابتسمت وضربتنى على صدرى.

- بتبقوا حبيبه.

وسكتت مدة طويلة.

- وبعدين.

فأجابت وهى شاردة:

- كان كل واحد يحبنى لغاية ما يخف وبعدين ينسانى. كنت زى البروفة اللى تتلبس جوه الدكان بس.. كنتو أشطر منى دايمًا.. وكنتوا تقعدوا مع بعض.. وتعلموا بعض..

وتقولوا نرجس الشقية.. كنتو تقولوا كده عشان تنسونى.. وبعدين بقيت شقية بصحيح.. وبقيت أكدب زيكو.. بقيت وحشة.

وسكتت.. ونظرت فى وجهى بعينين جامدتين. ثم التقطت مفرشها وعادت تعمل من جديد.. وأغرقت فى الصمت.

ومرت دقائق طويلة.. ثم سألتها فى حرج:

- قوليلى يا نرجسة.. انتى بتحبى لطفى.

فأجابتنى فجأة وبعصبية:

- أنا عارفه إنه عاوز يطلقنى.. وأنا عاوزاه يطلقنى.. أنا مش بحبه.. وهو مش بيحبنى.. هو واحد منهم.. واحد من اللى كانوا عيانين وخفوا.. البروفة ما عادتش تنفعه.. هو عاوز بدلة جديدة.

وغلبها الألم. فبكت فى حرقة. ثم غالبت دموعها ومسحت وجهها وعادت إلى المفرش. وهى تغمغم بصوت مختنق:

- أنا بكدب، وأنا باكره الكدب.. أنا طبيعتى مش كده.. أنا مش وحشه.

ورفعت إلىّ وجهًا صافيًا كوجه الطفلة.. وكانت عيناها تتألقان كسماء غسلها المطر.

- أنا مش وحشة يا عوف.

– أنا عارف.

– الدنيا اللى عشتها، هى اللى كانت وحشة أوى.

واطمأنت إلى ثقتى فهدأت وعادت إليها الابتسامة، وقالت وهى تشيح بذراعها كأنها تبعد حلمًا مزعجًا:

– بكره آخر يوم على كل حال.. بكره المرور والعنبر حايفضى والعيانين القدام اللى خفوا حايطلعوا وييجى عيانين جداد غيرهم.. بكره تنتهى القصة وتطلعوا كلكم من حياتى وأنساكم.. وتنسونى.. ويبقى مفيش لطفى وعوف وعم زكى وشيخ حامد.. كلكم حاتبقوا ذكريات.. اتناشر ساعة وابتدى أعيش من جديد فى قصة تانية.. بكره أقولك سعيدة يا عوف.. مع السلامة افتكرنى بالطيب.

ونظرت إلىّ نظرة رقيقة وبدا وجهها سمحًا.. ساذجًا.. وتصافحت قلوبنا.. وتصافينا.. وغمرتنا لحظة سعيدة. ثم عاد وجهها فكسته غشاوة معتمة وانسدل عليه النقاب القديم.

وقلت وأنا أربت على يدها:

– سيبك من الأفكار السوده دى.. الدنيا لسه حلوه.. وانتى لسه حلوة وصغيرة.. وكل الناس بيحبوكى.

فنظرت إلىّ وهى شاردة ثم عادت إلى شغلها.. وأخرجت بلوفرًا صغيرًا من الصوف.. وأخذت تعمل فى آلية.. وانزلق أحد أزرار مريلتها فانكشف قميصها الداخلى.. ولاحظت

أنه قديم متآكل فى عدة أماكن.

وكانت مشغولة بالتريكو.. تحرك الإبر فى هدوء وتلذذ. ثم رفعت يدها عن الشغل فجأة وقالت فى زهو:

– حلو البلوفر ده؟. أنا عملته فى يومين.

– لمين.. ده صغير أوى.

–لأخويا محمد.

وابتسمت وهى تمسك البلوفر من كمه وتحتضنه. وانفرج النقاب الحزين عن وجهها مرة أخرى كما تنفرج ستارة قاتمة. وتبدت خلفه ملامحها الوديعة.

واتسعت ابتسامتها شيئًا فشيئًا وهى تتخيل أخاها الصغير يدخل فى البلوفر.

– أخويا محمد سنه تسع سنين بس. عاوزه أطلعه دكتور.. حاعلمه فى العالى وأدخله الطب.

وعاوزه إيه كمان يا نرجسة؟.

– عاوزاه يبقى مدير كبير فى الصحة.

– وإيه كمان.

– ويبقى له بيت فى الزمالك.

– وعاوزه إيه لنفسك.. لك انت.

-- أنا؟.

وسكتت.. ثم أجابت ببطء وبنبرات أخرى خافتة:

- مش عاوزه حاجة.

- أبوكى عايش يا نرجس.

- أبويا وأمى ماتوا.. أنا راجل العيلة.

- أنت راجل قمور أوى.

ونظرت فى عينيها أبحث عن الشيطانة العابثة.. سابية القلوب.. فلم أجد سوى رجل كبير طيب.

ومضت الاثنتا عشرة ساعة بسرعة لم أكن أتوقعها. ووجدت نفسى أجلس فى عربة واسعة بقطار المصحة المسافر إلى القاهرة.. وحولى مرضى عنبر سبعة كلهم.. عم زكى جالس على أرض العربة يلعلع بموال بلدى.. وأنا أنظر من نافذة القطار إلى عنابر المصحة المتناثرة فى الصحراء كخيام عربان رحل.

وكل شىء يبدو لى كالحلم.. فأفرك عينى بين حين وآخر.. وأعيد النظر حولى.

هل كنا جميعًا ننام بين الحياة والموت فى هذه الصحراء العارية.

هل هذا عم زكى اللومانجى الذى كان يشرب السبرتاية كل ليلة.. ويسعل حتى تتمزق رئتاه وتنزف خراطيم دم.

هل هو عم زكى الذى يغنى الآن.. وكفه على صدغه.

كان الغد يحمل لنا فى طياته هدايا جميلة، دون أن ندرى.

لقد شفينا جميعًا. وحصل اللومانجى على إفراج. وتغلب على داء المورفين.. وزاد بضعة أرطال.. وامتلأت الحفر الغائرة فى خديه.. وجرى الدم فى عروقه.. وانطلق يغنى.

وأكل الشيخ حامد علقة جعلته يكف عن ترديد الأكاذيب. ويخفى السبحة فى عبه.

ومر لطفى بتجربة لن ينساها.

وجلست أنا فى فراشى أجمع خبرات الناس. وأذاكرها فى رأسى كالتلميذ النجيب.

وارتفع صوت عم زكى يلعلع بالغناء. وكانت الشمس تنصب من النوافذ دافئة تبعث الخدر فى الأوصال.

وأحسست بأن الدنيا جميلة.. جميلة جدًا..

وكان الشيخ حامد يلقى مصاصة القصب تحت قدمى ويجذبنى من سروالى قائلا:

- عارف يا ضلالى ربنا شفاك ليه؟..

- ليه..

- عشان يمد فى أجلك.. لجل تشيل ذنوب كمان وكمان..

ويبقالك فى جهنم قصر عالى.. حاكم ربنا دايمًا يمد فى عمر الأبالسة.

– يا سيدى كتر خيرك.. ده بركة دعاك.. والأبالسة لبعضهم..

– وحدوه.. وحدوه.. وحدوا اللى فلق البحر..

– فلقتنى يا شيخ.. كل وانت ساكت.. مش كفاية إنك واخد عود القصب سرقة.. وكمان حتغنى علينا وتعمل ولى.

– سرقة.. حد الله يا شيخ.. حد الله بينى وبين الحرام.. وفعل الحرام.. وأهل الحرام.. وذكر الـ..

– بس.. بس..

وحشوت فمه بمصاصة القصب..

– بس ما تزعلش نفسك.. قفاك استوى من الضرب..

وصفر القطار.. وظهرت نرجس على باب العنبر تلوح بمنديل كبير أحمر.. وازدحمت نوافذ العربة بالمرضى يردون لها التحية.. وظل لطفى يدخن فى الركن.. وفتحت علبة سجائرى وقدمت له سيجارة..

– تشرب..

– لا.. أشكرك..

– غير سجايرك مرة عشان خاطرى.. الواحد لازم

يغير حاجة فى حياته عشان يبقى لها طعم..

تردد لحظة ثم مد يده وأخذ سيجارة، فقلت أباركه:

– دلوقت أنا متفائل.. بكره حاتغير حياتك كلها.. وبعد بكره تغير تفكيرك.. والسنة الجاية تبقى واحد تانى.. غير لطفى الغلبان الحيران.

ولم يجب وظل ينظر من خلال النافذة برهة ثم قال:

– نرجس عملت إيه امبارح..

– ولا حاجة..

– أنا ماقدرتش أستمر فى الكدب يا عوف.. كان لازم أطلقها..

– عملت طيب.. ريحتها.. وريحت نفسك..

– أنا مش عارف حاتقول علىّ إيه.. أنا عارف إن رأيك عنى كان دايمًا وحش..

– أبدًا.. انت اتعلمت يا لطفى.. وكلنا بنتعلم.. مفيش واحد فى الدنيا وحش وواحد كويس.. إنما فيه واحد بيعرف.. وواحد ما بيعرفش..

– أيوه صحيح..

وتحرك القطار وبدأت المصحة تبتعد حتى أصبحت نقطة

صغيرة سوداء.. ولاحت الأراضى المنزرعة الخضراء عند الأفق.

وظللنا صامتين حتى دخل القطار محطة القاهرة.. ونزل المرضى لتستقبلهم أحضان أهليهم على الرصيف..

وبقيت وحدى.. أتلفت حولى فى الجهات الأربع..

وتذكرت فجأة أن أهلى ماتوا.. وإنى وحيد..

وذهبت إلى غرفتى التى غطاها الغبار.. وفى يدى سلة تفاح أهدتها إلىّ نرجس..

وجلست أنظر إلى خدود التفاح الأحمر وأفكر فى أشياء كثيرة..

تذكرت سنة ونصفًا قضيتها فى الصحراء.. وتذكرت الذين ماتوا.. والذين عاشوا..

وتوقفت طويلا أمام صورة نرجس..

كانت تبدو كتفاحة ناضجة.. فى داخلها اللب.. وفى داخلها البذر.. حلوة.. ومرة..

كانت من المادة التى صنع منها البشر كلهم وأحسست بها قريبة منى فى وحدتى.. قريبة جدًا.. وكان إحساسى حقيقيًا.. خاليًا من الزيف..

ووجدت نفسى أغمس القلم فى المداد لأكتب لها هذا الخطاب.

عزيزتى نرجس..

لن أقول لك إنى أحبك.. ولكن سأقول إنى أفكر مثلك فى مستقبل أخيك الصغير محمد.. وأرغب كما ترغبين فى أن يكون دكتورًا كبيرًا.. وأن يكون مديرًا فى الصحة... وصاحب بيت جميل فى الزمالك.. وأريد أن أحقق لك هذه الأحلام..

وأقول أيضًا إنى مثلك.. أحلم.. وأرغب فى حياة جميلة نافعة.. ولا أحقق من هذه الأحلام فى النهاية إلا.. بلوفر صغير..

إننا نتشابه فى آخر الطريق.. كلنا..

لا توجد فروق تكفى ليحكم الواحد منا على الآخر.. وليصبح بعضنا قضاة.. وبعضنا متهمين..

كلنا سواء..

إنى سعيد بالأيام التى قضيتها مريضًا.. وسعيد بالأيام التى عرفتك فيها.. ولن أنساها أبدًا..

أشكرك على التفاح..

إنه حلو شهى مثل خدودك.. وسوف يبقى طعمه فى فمى طويلا.. هو وذكرياتك الحلوة..

المخلص

عوف

وألقيت الخطاب فى الصندوق.. وفى الطريق.. بدأت أتذكره من جديد فى خيالى.. سطرًا.. سطرًا.. وكلمة.. كلمة..

هل أحببت نرجس؟

ربما.. من يدرى..

وضحكت.. هذه المرة.. على نفسى.. على الشاطر عوف.. صاحب النصائح التى لا تخيب.. فى دنيا الغرام.

القطار

القطار يسير.. وصفيحة الزيت المثقوبة تهتز، وجوالات الدقيق تتمايل.. وعلى الأرض فلاح يحتضن أوزة ولبشة قصب.. وأطفال ينامون.. ونمل بشرى مرصوص.. وأنا أتشاغل بصحيفة فى يدى.. وأمامى مقال طويل عن بطل أمريكى بدأ حياته وفى جيبه ريال.. اشترى به مبيدًا للصراصير وطاف على ربات البيوت يدعو إلى طريقة الاستعمال لمقاومة الحشرات، وجمع مئات الريالات، فتح بها دكانا ثم تطور الدكان إلى مصنع والمصنع إلى شركة، والشركة إلى مؤسسة تدر الملايين.. ثم مشروع تجارى له فروع فى القارات الخمس.. وأصبح دانى هوكى الفقير..

ملك الحشرات فى أمريكا وصاحب مئات الملايين من الدولارات.. وتنازل أخيرًا عن نصف ثروته لجمعية رعاية الكلاب فى بوسطن.. ومات مبكيًا على شبابه الغض وعبقريته الفذة..

وكل هذا من ريال وعلبة من سم الصراصير.

وتهتز صفيحة الزيت إلى جوارى.. لتعود بى من الآمال العريضة التى دفعنى إليها المرحوم دانى هوكى وتلقى بى أرضًا.. بين الفلاحين الذين يمصون القصب ويتجشئون..

وأتذكر نفسى..

لقد بدأت حياتى وفى جيبى ألف جنيه..

كنت أغنى من دانيهوكى أكثر من ألف ضعف..

وفتحت متجرًا للزيت وكافحت فى عزم وصدق وأمانة.. ولكن الزيت أصر على أن يزنخ فى مخازنه..

ودخلت معاصر البخار الحديثة من بلاد دانى هوكى إلى قريتى الصغيرة فطردتنى أنا ومعصرتى التى تديرها بقرة إلى عرض الطريق..

وانتهت قصة الألف جنيه إلى ريال..

كيف تحول الريال فى يد دانى هوكى إلى مئات الملايين من الدولارات، وتحولت الألف جنيه فى يدى إلى ريال..

أهى الأقدار.. والصدف.. واللوتارية.. التى تحكم مصائر البشر؟.

وما للأقدار ومالى!؟

إنى رجل قبطى سليم النية.. على ذراعى ثلاثة صلبان وعلى صدرى وشم العذراء مريم.. ولم يشرق علىّ صبح لم أصل فيه وأسبح باسم الأب والابن والروح القدس..

لم أسرق ولم أكذب ولم أزن ولم أخن جارى.. وحينما كانت أمى تموت والقسيس يهدئ من روعها قائلا:

اذكرى يا أماه آلام المسيح على الصليب..

كنت أبكى..

ولكنى الآن وأنا أتذكر حياتى وحياة الناس وأضع الحقائق إلى جوار بعضها البعض.. أجد أن آلام المسيح كانت شيئًا هينًا.. فلم يكن للمسيح أبناء.. وكان يموت من أجل هدف نبيل تهون من أجله آلام أربع وعشرين ساعة على الصليب..

أما أمى.. فقد عاشت على الصليب ستين عامًا.. وماتت بدون هدف يبرر عذابها.. وخلفت طفلا كبيرًا بذراع معروقة يعصر الزيت من تراب الأرض..

هيه.. يا أماه..

إن القطار يسير.. وفى هذا الكفاية..

القطار يسير.. ولا شىء يظل فى مكانه أبدًا..

أنا والناس والشمس والنجوم وموج البحر ودود الأرض.. كلنا نتحرك..

وامتدت من النافذة ذراع تحمل قفة بها ذرة.. وأدخل فلاح رأسه فى العربة.. ثم زحف بجسمه وسقط على الكرسى.. ومن خلفه ثلاث عيال.. وهو يصيح فيهم.. أوعو البيض..

وكان القطار قد وقف.. وباعة السميط يسدون النوافذ.. واللحم البشرى يتكدس.. والصراخ يمتزج بالعويل بالصفير بالأحضان بالقبل.. وعجوز على المحطة يلوح بيديه:

– يا عوضين.. ماتنساش تقرأ الفاتحة لأم هاشم.. الفاتحة بأمانة يا وله..

والقطار يتحرك.. وصوت البلغ يطرقع على الرصيف.. وصفير البخار يصك الآذان.. والفاتحة أمانة يا ولة.. وشبح العجوز يتضاءل حتى يصبح علامة سوداء على الأرض.. والغيطان تملأ الناحيتين كبساط من سندس تنزلق عليه العربات.. وعويل السواقى.. ونقيق الضفادع.. وخوار البهائم.. والبيوت الطين.. وأعمدة البرق.. والدنيا التى تشبه شريطًا يتحرك.. وأنا فى مقعدى أنظر فى كلمة..

مشوهى الحرب.. المنقوشة على جدار العربة بالطلاء الأسود، وأتخيل قصة هذه العربة منذ سنوات حينما كانت تنقل الجرحى. والقنابل تنفجر حولها أيام العلمين..

وربما على نفس الكرسى الذى أجلس عليه.. كان هناك جندى ينزف ويموت.. والكرسى أمامه.. ونظرت أمامى.

كانت هناك امرأة ريفية طويلة عريضة الصدر فى جلباب أسود وطرحة.. كان وجهها جامدًا أجعد، وعيناها لا تطرفان.. وفمها مزمومًا، وخداها غائرين..

كانت صلبة كالجدار الذى تشقق فى أكثر من مكان ولكنه ظل شامخًا.. وكان ذراعها الناحل كقطعة الخشب يرفع صفيحة الجبن الثقيلة إلى رف العربة فى خفة كأنها ذبابة.. وعلى حجرها ينام طفل يمضغ قشرة برتقالة، وإلى جوارها تقف بنتها فى فستان أحمر تحمل كتابًا..

– أبويا جاى إمتى.. أم.. أبويا جاى إمتى؟

– أبوكى فى البندر يا بت.. إيه اللى حايجيبه دلوقت..

– كل ما أقولك تقوليلى أبويا فى البندر.. هو حايقعد فى البندر طول عمره..

– وعاوزه من أبوكى إيه؟..

– عاوزه أوريله الفستان الأحمر، وكتاب المدرسة..

وابتسمت الصغيرة.. وفتحت كتابها.. وأخفت وجهها فيه وراحت ترسم على الصفحة بشعرها الطويل الذهب.. ثم أخذتها النشوة فراحت تقفز كالقطة.. وتهتف بأعلى صوتها.. زرع.. حصد.. كتب..

ثم وضعت الكتاب أمام أمها وأخذت تشير بإصبعها الأبيض إلى الصفحة:

– شوفى السمكة.. والعصفورة.. والضفدوعة..

ورفعت عينيها الواسعتين فجأة وتشبثت بجلباب أمها الأسود هاتفة:

– أبوى جاى بكرة ؟..

وتخلصت الأم من قبضتها ولم تجب..

وعادت الصغيرة تقفز.. وابتعدت.. وغابت فى الزحام.. ولفت الأم وجهها بالشال وغمغمت.

– أبوكى تحت التراب.. يا عيشة يا بنت الجرجاوى.. راح له سنين..

وصفر القطار.. ثم بدأ يهدئ من سرعته وتوقف فى أحد المراكز..

ونهضت الأم واقفة.. على رأسها صفيحة الجبن وطفلها على ذراعها.. والطفلة الأخرى فى يدها.

وعلى الرصيف كانت عيشة ما زالت تقرأ.. بصوتها الرفيع كالجرس.. زرع.. كتب.. وأمامها صفيحة الجبن تتأرجح على عنق نحيل.. وأمها تتقدم فى خطوة ثابتة..

وصفر القطار كأنه يقول معى..

كل شىء يهون كما تهون المسافات..

الزمن يمشى على كل شىء.

وكانت الأم تبتسم وهى تسير إلى جوارنا كأنها تقول هى الأخرى:

– لم يمت أحد.. سوف يتعلم العيال..

وعربة مشوهى الحرب بمن فيها.. تتقدم عبر الحقول.

لا أحـد

إلى جوار فراشى عشرات الزجاجات من أقراص اللومينال والفيرونال، وألوان من الأمزجة والنقط.. بعضها يقوى الأعصاب، وبعضها يشد العضلات، وبعضها يساعد على النوم.. وبعضها يساعد على اليقظة..

وأنا راقد كالعربة المفكوكة فى جاراج، كل جزء منها فى مكان.. كل شىء فى وجودى مفكك حتى أحلامى.. حتى أفكارى.. وأنا أجمع أجزائى بعضها على بعض كلما أردت أن أصل إلى قرار صغير تافه.. مثل إضاءة المصباح.. أو إشعال سيجارة، أما البت فى القرارات الكبيرة فقد

أصبح مستحيلا.. علىّ أن ألجأ للنصائح ومنشورات الصحف لأبت فيها..

أصبحت أشبه سفينة جميلة قلاعها مشرعة.. ولكن بدون ريح.. هناك جزء ما مكسور فى آلة وجودى.. ربما كان سلكًا رفيعًا يوصل بين عقلى وقلبى.. ويحمل إلى نفسى الكهرباء والنور.. سلك رفيع انقطع بانقطاعه خيط حياتى.

إن حياتى حينما تعود إلىّ الآن.. تعود مقطعة الأوصال كشريط من صور منفصلة..

صورة أبى وهو يعود من الدكان كل يوم فيقرع الباب بعصاه.. ويستقبل أمى بسيل من الشتائم.. ثم يفتش عنى فى البيت ويسحبنى من أذنى.. ويضربنى علقة لأنى لا أستحم.. فإذا كنت فى الشارع ضربنى علقة لأنى لست فى الفراش.

وفى الصباح يحملنى من السرير ويضع رأسى تحت الحنفية.. ويضربنى قلمين لأسرع فى لبس ثيابى.. ثم يضربنى شلوتًا لأهرول إلى المدرسة.. ثم يتلطف على الباب ويعطينى مليمًا لأصرفه..

وصورة أمى وهى تلقى علىّ تعليمات الصباح:

يا وله.. ما تنزلشى الحارة..

يا وله.. ما تلعبشى مع العيال الخسرانين..

ما تبصش للجيران.. اقفل الشباك..

ما تتكلمشى كتير.. اتأدب.. واقفل بقك..

ما تبحلقشى فى البنات.. اختشى عيب..

ما تجريش كتير..

اقعد ساكت.. خليك حلو..

ما تاكلش فى رمضان.. تخش جهنم.. حرام..

عيب.. غلط.. حرام.. مش أصول.. مش تمام. قلة أدب.. قلة حيا..

سجن.. سجن غليظ..

وفى المدرسة صورة لسجن آخر.. أشد قسوة وغلظة.. المدرس يستلمنى بالضرب ويقول عنى إنى بليد.

والمفتش يسخر منى ويقول عنى إنى حمار..

والناظر يهددنى بالرفت ويقول عنى إنى غبى..

والامتحانات تلهث خلفى..

وأنا حيران بين سجن البيت.. وسجن المدرسة.. لا أجد إلا الشارع أفر إليه كلما ضاقت أنفاسى.. فكأنى أرفع رأسى من تحت الماء بعد غطس طويل لأخذ شهيقًا عميقًا..

وأيام الصبا..

وسن الثانية عشرة وهو يقبل بإرتجافاته وأحلامه..

واللذة التى تتفتح لى فى الفراش وأنا وحدى.. والغرفة

مغلقة.. ثم تستبد بى.. وتتحول إلى سجان آخر لا أقوى على الهرب منه..

وأسمع الأولاد يقولون.. إنها عادة رديئة تهدم الصحة.. وأصغى إليهم فى فضول ورعب.. وقد عزمت أن أقلع عنها.. فإذا خلوت بنفسى تسللت يدى وهى ترتجف تحت الغطاء، وتشابكت أحاسيسى فى مزيج من النشوة والقلق والخوف.. وفى النهاية يتصبب على جسدى العرق البارد ويستولى علىّ الندم.. وأتصور وجهى فى الصباح وقد غدا أصفر مثل وجوه الموتى.

والبنات وأنا أنظر إليهن من خلال المعلومات القليلة التى عرفتها من السينما والروايات وأحاديث الليل تحت الفانوس مع شلة العيال..

وصوت أم كلثوم وهى تغنى.. يا ما أمر الفراق.. وأنا واقف فى البلكون وحولى قصارى الزرع.. وتعريشة اللبلاب.. وصفير قطار الدلتا من بعيد.. وأنا أحلم بأنى ملك.. ملك كبير من ملوك زمان..

وسنوات الشباب الواحدة منها تجر الأخرى كقطار من التعاسة..

ويوم السبت الذى لا أنساه.. وسكرتير المدرسة يقول لى فى حزن:

– طلب مجانيتك رفض وسوف تطرد من المدرسة إذا لم تسدد المصروفات..

وأبى الميت فى البيت..

واليوم الأول فى الشارع.. وقد تركت المدرسة خلفى وذهبت أبحث عن عمل..

وورشة السيارات التى أعمل بها عتالا.. أتجول بالعفريتة الزرقاء بين الشحم والزيت وصراخ الأسطوات.

ثم سلسلة من عشرات الأشغال أتنقل من الواحد إلى الآخر، ملاحظ وابور طحين.. كاتب أنفار.. خولى عزبة.. كمسارى أتوبيس.. عامل فى مسبك حديد.. أسطى فى ورشة خشب.. والفقر وهو يجرى خلفى فى كل شغلة..

ويوم الأحد من كل أسبوع وأنا أتعشى عند عمى العجوز.. وثرثرة آخر الليل.. والغرفة العارية الكالحة.. وعمى وهو يجذب أنفاسًا من الجوزة وقد تكوم على مرتبة قذرة.. ومضى يهذى بسيل من المواعظ والحكم:

– دنيا ما تسواش يا ابن أخويا.. كله محصل بعضه.. الفقر محصل الغنى والصحة محصلة المرض.. والعالى محصل الواطى.. تندم على إيه.. على الفلوس ؟.. الفلوس بيجيبها إبليس وياخدها إبليس.. وكله فانى.. اضربها صرمة تعيش مرتاح..

ولكنه لا يضربها صرمة.. بل يضرب نفسه صرمتين.. ويشرب خمرًا أردأ من الخل.. ويعب من الجوزة القاتلة حتى مطلع الصبح..

وسنوات الرجولة وهى تشرق علىّ متأخرة بعد عمر طحنته الآلام.. والنقود القليلة التى ادخرتها من لقمتى.. وقد فتحت بها دكانًا للكتب القديمة.. والفراغ الطويل الممدود وأنا جالس فى الدكان اقرأ الكتب التى أبيعها وأشتريها.. وأتغذى بوجبة من الحلاوة الطحينية كل يوم. وأقضى الليل فى مقهى بيومى وأنا سرحان.. أفكر فى أسئلة كثيرة عن حياتى وحياة الناس.. وماذا نريد كلنا من الدنيا.. ومن أكون أنا..

أنا.. طلبة عبد الحميد رضوان..

أنا لا يمكن أن أكون رجلا واحدًا هو عم طلبة.. صاحب مكتبة طلبة.. إن الكلمات الأربع فى اسمى لا تعنى شيئًا.

أنا عشرات من الناس يسكنون ثوبًا واحدًا.

هناك عم طلبة الذى يصلى الفجر حاضر ويحلم بزوجة غنية وفدادين وفيلا فى شارع الهرم وعربة وحياة رتيبة، واحترام ومقام ومعاش من الحكومة..

وهناك عم طلبة آخر يسب الدين ويسرق الزبائن

ويبصق على العمارات والفدادين، ويشرب زجاجة خل قبل أن ينام.

وهناك عم طلبة ثالث يقرأ الكتب ويفكر فى الحياة والثواب والعقاب ويناقش قضايا مجتمعه..

وهناك عم طلبة رابع يفكر فى الانتحار والموت وحرق الدكان وهجرة البلد.. إلى أين؟ لا أحد يعلم.. ولا حتى هو..

وهناك عم طلبة خامس ينام فى الجامع ويسرح مع الدراويش ويرتل الأوراد والأذكار ويتوه فى البخور..

وهناك عم طلبة سادس وسابع.. وعشرات.. كل واحد شكل..

وكل هؤلاء هم أنا.. أراهم الآن بنصف عين وقد تفككوا.. وتكوم كل واحد فى ركن بالغرفة.. وقد انقطع الخيط الذى يربطهم فى شخص واحد.

هيه.. يا عم طلبة..

أين أنت بعد المشوار الطويل الذى قطعته؟

أنت فى الجاراج.. الموتور فى مكان.. والعجلات فى مكان. والمقاعد فى مكان.. والبطارية فى مكان..

لقد تصادمت بجدار فتهشمت ألف قطعة.. وتبعثرت أيامك..

هل تذكر كيف حدث هذا؟..

إنها قصة قصيرة ترويها الجرائد عادة فى سطرين..

لقد تيقظت فى الصباح.. وتركت منزلك وقد ملأت بطنك بفطور دسم.. ولففت نفسك فى بذلتك.. وسرت تترنح نشوانًا قانعًا بحياتك..

وبلغت الدكان من طرق ملتوية لتستمتع بالمشى.. ولتستمتع بوقع قدميك وهما تطرقان حصى الرصيف.

وفى الدكان جلست.. وتمطأت.. وصحت بأعلى صوتك: يا وله. روح هات لى شاى من القهوة..

ووضعت ساقًا على ساق وأرخيت حبال تفكيرك.

وبين نعاس الرضا ورشفات الشاى وهزات ساقك وانسدال جفنيك.. كنت ترى كل شىء فى الشارع حلوًا.

يا وله.. هات لى جوزة من القهوة.

وفتحت كتابًا على حجرك.. ومضيت تقرأ.. وتكركر بالشيشة.. وتبيع وتشترى.. وتشخلل بالقروش فى جيبك..

إن كل شىء على ما يرام..

لقد تغلبت على الجوع والفقر.. وهأنتذا تضع ساقًا على

ساق فى دكان تملكه وتبيع فيه وتشترى..

وأنت قرير العين راض عن نفسك.. فكل قرش تكسبه هو بكدك وعرقك.. ولا أحد له عندك حاجة..

وتمددت فى جلستك واحتواك الكرسى كأنه حضن... وكركرت الشيشة كالقطة عند قدميك..

يا وله هات الكتب من عند التجليد..

يا وله هات فحم..

يا وله امسح الجزمة..

يا وله نزل الكتب دول من على الرف.. وطلع الكتب دول بدالهم.. وروح هات السلم من عند عم محمود..

غبت ليه يا واد.. كنت فين.. انت رحت مت.. ما لقيتوش؟ طب قاعد ليه.. مستنى إيه.. مستنى طلوع روحك.. شايف التراب راقات على الأرفف ازاى.. هات المنفضة واطلع نفضه..

امشى.. اتحرك.. ماتبقاش ميت.. نزل اللمبة من فوق عشان تغسلها.. رجع اللوح الخشب ده مطرحه.. حطه فوق الكرتونة.. شيل الزبالة اللى فى السكة دى.. قشها بالمقشة قوام.. طلع الصندوق ده بره.. اعدل الرف المايل ده.. كده توقع الكتاب على الأرض يا حيوان.. أنت مسطول.. إنت..

ولطشته على وجهه.

وهرب منك كفأر مذعور وهو يغطى وجهه بذراعه.. وكان فمه يسيل منه خيط من الدم.. والتصق بالركن وهو يتهته:

– والنبى هو اللى وقع منى.. والنبى معلش.. والنبى ماعنتش.. دنا يتيم وغلبان وماليش حد.

وكفت يدك عن الضرب.. ولعلها شلت.. وهى تسمع الكلمات الأخيرة..

لقد تذكرت أنك قلت نفس الكلمات.. منذ عشرين عامًا.. قلتها لأسطى ورشة السيارات وهو يلوح فى وجههك بقطعة حديد وأنت تلوذ بالركن وتحمى وجهك بيدك وترتعد من الهلع وتتهته:

– دنا يتيم وغلبان وماليش حد..

وحملقت فى وجه الولد فرأيت صورتك تعود إليك.

ونظرت إلى يدك كأنك تنظر إلى يد رجل آخر لا تعرفه.. رجل متوحش..

وظل الدم يسيل من فم الصبى وحملته الإسعاف.. ومرت عليك ليال لا تنام..

إن كل ما حدث إنك امتلكت دكانًا.. فتغيرت.. تغيرت

دون أن تدرى.. أصبحت تدفع مع إيصالات النور والماء وإيجار الدكان أقساطًا من ضميرك كل شهر.. وهكذا يفعل أصحاب الدكاكين.. وكل التجار.. فأنت تكذب وأنت تشترى الكتب... وأنت تكذب وأنت تبيعها.. وأنت تضغط على مصروفاتك.. وتضغط على عنق الصبى الصغير اليتيم.. ولا فائدة..

وأنت تمسك بخناق الصبى كما كان الأسطى يمسك بخناقك، إن الصبى يموت فى المستشفى..

......

وسوف تكتب الصحف الخبر تحت عنوان.. ضرب أفضى إلى موت.. وتروى الحادث فى سطرين.

ولكن الحادث أكبر من مجرد خبر فى صحيفة..

إنه نافذة واسعة مفتوحة على حياتك يا عم طلبة..

إن حياتك لم تكن كفاحًا.. وإنما كانت دورانًا فى نقطة واحدة.. كانت تكرارًا..

فى البداية كان هناك رجل فظ قاس يضرب صبيًا صغيرًا.. وفى النهاية كان هناك رجل فظ آخر يضرب صبيًا صغيرًا آخر.

لم تفعل شيئًا فى العمر الذى عشته..

كنت مثل أبيك ومثل أسطى ورشة السيارات..

لم تكن موجودًا فى هذه الأعوام الستين..

كانت هناك حوادث تحدث بمقتضى البيع والشراء.. ودكاكين تفتح وتغلق.. وتحتاج بين حين وآخر إلى اعتداءات وجرائم صغيرة..

وكانت هناك جنايات تسعى إلى الأيدى التى ترتكبها..

ولو تصفحت الجرائد لوجدت حكايتك منشورة فى سطرين.. فى جريدة قديمة صدرت قبل أن تولد.. ولوجدتها فى كل جريدة.. وفى كل يوم..

أنت مجرد رجل مكرر..

رجل تخلقه التجارة فى الدكاكين وتعيش له عمره، ثم تقتله.. واسمه أحيانًا بيومى.. وأحيانًا خليل.. وأحيانًا طلبة اسمه.. أى اسم.. لأنه فى الحقيقة.. لا أحد..

الشاطر

شقة خاصة..

غرفة استقبال شبيهة بالمخدع. المقاعد عريضة تصلح للجلوس وللنوم فى وقت واحد.. النور أحمر ضعيف..

الزوجة تجد نفسها لأول مرة فى حياتها فى هذا الجو المريب.. لقد خرجت من البيت بحجة الذهاب إلى الخياطة ثم ذهبت لتلاقى حبيبها فى شقته بعد الحاح وإغراء متواصل لمدة سنة.. وبعد أن طمأنها الحبيب بأن اللقاء لن يكون سوى زيارة عادية.. فى جو أخوى.. وأنه لا داعى لتصور أشياء لن تحدث بالمرة..

ولكن الزوجة فى حالة تعسة..

إنها تحس بالرهبة والخوف والقلق والتوتر.. وأكثر من هذا تحس أنها مهزومة أمام الجو الذى يلعب على أعصابها.. وأمام الصمت.. والخلوة السرية التامة التى تحيط بها.

وهى لا تخشى شيئًا أكثر من خشيتها من نفسها. إنها تواجه ضعفها لأول مرة. وهى تحس بالتمزق والصراع..

أما حبيبها فهو فى الركن يعطيها ظهره.. ويميل على جهاز بيك آب ليدير أسطوانة.. ويتحدث بصوت رقيق حنون..

– هذه الأسطوانة من أحب الأسطوانات إلى قلبى.. أتعرفين ماذا تقول كلماتها..

يا حبيبى.. لا تدعنى..

إنى أتوه فى هذه الدنيا حينما أفارق ذراعيك..

إن حضنك الدافى هو بيتى.. هو سكنى..

هو أهلى الذين أحبهم..

هو أيامى كلها..

يا حبيبى أنت دنياى..

أنت.. أنا..

والمغنى صوته ساحر.. إنه إيطالى اسمه بيرجيوفانى.. يضع الإبرة ويدير الجهاز ثم يخفض صوت الغناء حتى يصبح كالهمس..

تمضى لحظة.. يبتسم وهو ينظر فى الركن..

فى الواقع أنه كان يكذب طول الوقت.. فالأغنية الإيطالية لا تقول هذا الكلام.. وهو لا يعرف الإيطالية بالمرة.. ولكنه كلام خلقه بالمناسبة فهو شاطر.. مجرد شاطر.. لذته الوحيدة هى مجرد الشطارة والانتصار، وإجراء عمليات الحب بنفس البرود الذى يجرى به الطبيب عملية استئصال.. بدون حماس..

وهو يستخدم لسانه كالمشرط يقطع به اللحم الحى ويستمتع بلذة غير إنسانية.. غير لذة الحب.. هى لذة الخبرة.. والتفوق على الزوجات التعيسات الضعيفات.

يقترب منها ويمسك يدها ويقبلها.

تسحبها منه بسرعة.. وهى ترتعش كأنها أحست بلسعة.

– أتخافين منى.

– أنا لا أخافك.. ولكنى أخاف نفسى.. أريد أن أخرج من هنا.. أريد أن أهرب.. أريد أن أرجع إلى بيتى.

تحاول القيام.. يمسك بيديها فى توسل ويقبلها فى حنان

دافق.. تتهاوى على كرسيها من جديد.

– لا أعرف ماذا سيكون نهايتنا.. ما نهاية كل هذا. ما الفائدة.. لقد أضعت نفسى.. كنت أعيش فى تعاسة واحدة فأصبحت أعيش فى تعاستين.. كنت متزوجة من رجل لا أحبه فأصبحت أحب رجلاً لا أتزوجه.. أصبحت ممزقة بين رجلين.. وبين عذابين فى كل لحظة.

تبكى فى حرقة.. يأخذ رأسها فى صدره.. ويربت على شعرها.. ويمطرها بسيل من القبلات.. ويهمس فى أذنها.

ما الذى يدعوك إلى التفكير فى التعاسة فى هذه اللحظة الجميلة.. وأنت معى وأنا معك.. وأنت تحبينى وأنا أحبك واللحظة التى نعيشها ملكنا.. لحظة انتصار.. لحظة نصنع فيها الحلم الذى طالما حلمنا به وتعذبنا من أجله.

– إنها ليست لحظة انتصار.. إنها لحظة ضياع.. إنها مجرد لحظة سوف تنتهى وتخلف لنا الحسرة.

– كل شىء فى الدنيا لحظات تنتهى.. حياتك مع زوجك لحظات تنتهى.. وسعادتك لحظات تنتهى.. وعذابك لحظات تنتهى.. وأنت نفسك عمر ينتهى.. كلنا سوف ننتهى.. لا شىء سوف يبقى فى هذه الدنيا.

– إذن ما الفائدة.. ما فائدة أية لذة.

– وما جدوى أى بكاء.. لا توجد حقيقة تستحق منا

أن نبكى من أجلها.. الحقيقة الواحدة هى أنت.. وجودك معى الآن.. فى هذه اللحظة.. لماذا لا نعيش هذه اللحظة قبل أن تفلت من أيدينا.. ولا تعود.

يحتضنها ويتحسس خدها ورقبتها وصدرها ويتحدث فى نبرات خافتة.

– إنى أتذكر الآن قصة طريفة قرأتها من زمان.. قصة قسيس كان يزور جارته الأرملة الجميلة كل يوم ويقرأ عليها موعظة دينية لتحفظها من إغراء الخطيئة.. كان القسيس يخشى عليها من جمالها ومن حياتها وحيدة، ومن إغراء الرجال، وفى أحد الأيام رآها تحزم حقائبها وقد أزمعت السفر.. وقالت له إنها سوف تسافر بعيدًا.. وسوف تغيب عدة أشهر.. واستمهلها القس قليلا.. ريثما يأتى لها بهدية من الدير.. وغاب قليلا ثم عاد يلف شيئًا فى عباءته.. ولما فتحت اللفافة.. صرخت فلم يكن ذلك الشىء سوى جمجمة ميت متآكلة تساقطت أسنانها.. وقال لها القس فى صوت رهيب.. انظرى يا امرأة.. انظرى وجهك فى المرآة.. أتشاهدين هذه الفتنة الساحرة.. أتشاهدين شعرك الفاحم فى سواد الليل وأسنانك الناصعة كاللؤلؤ.. وفمك الأحمر كفص العقيق.. وعينيك الصافيتين الزرقاوين كأنهما قبس من نور السماء.. تأملى هذه الفتنة وانظرى فيها مليًا فما هى

إلا وهم.. ما هى إلا سراب ما يلبث أن يزول.. ولا يبقى منك إلا هذا الشىء.

وأشار إلى الجمجمة المتعفنة المتآكلة التى تساقطت أسنانها: .. هكذا أنت يا امرأة.. وهكذا نحن جميعًا.. وهكذا الدنيا.. وهكذا لذاتها ومفاتنها.. كلها أوهام.. باطل الأباطيل الكل باطل.. لا شىء يبقى من الإنسان إلا كلمته الطيبة وعمله الصالح.

خذى هذه الجمجمة.. انها هديتى التى اخترتها لك لترافقك فى أسفارك.. وتذكرك فى وحدتك بكلمة الرب.

وأخذت الأرملة الجمجمة وسافرت وغابت شهرين.. ثم عادت.. وفى يوم عودتها كان القسيس فى انتظارها.. وكان متلهفًا.. يريد أن يعرف ماذا حدث فى هذين الشهرين.

وقالت الأرملة وهى تضحك طربًا.. أبتاه.. إنى لن أكذبك لقد أنفقت هذه الأيام الستين بغاية الحكمة والعقل..

لقد كنت أنظر كل يوم إلى جمالى فى المرآة، ثم أنظر إلى مصير هذا الجمال حينما ينتهى به الحال إلى هذه الجمجمة العفنة.. فأبكى فزعًا وخوفًا على جمالى.. وأسارع إلى الاستمتاع به والتلذذ بمفاتنه قبل أن تزول.. وهكذا.. كان لى فى كل يوم من هذه الأيام الستين عشيق مختار أقضى الليل

بين أحضانه وأسكب بين ذراعيه شبابى.. وأسقيه حياتى قبل أن يشرب الدود ماء هذه الحياة.

وسقط القسيس المسكين مغشيًّا عليه قبل أن تكمل كلامها.

يسكت.. ويترك المؤثرات الموسيقية تكمل القصة.. بينما يتحسس شعرها ويقبله.. يميل بفمه ويختلس قبلة خلف أذنها.. فترتعد.. يهمس فى صوت حنون.

– وأنت أيضًا تعيشين مثل هذه الأرملة مع زوج لا تحبينه.. وجمالك يذبل وشبابك يذوى.. وعليك أن تختارى بين هذا الموت عبثًا.. وبين هذه الحياة بين ذراعى.. بين حنايا قلبى..

تجاوبه بصوت ضعيف فيه آخر أنفاس المقاومة.

– ولكن.. ولكنى أم.. وزوجة.. وزوجى هو صديق حميم لك.. فكيف يمكن أن.. يا إلهى.

– صداقتى لزوجك مجرد كلام.. وكل حياتى فى الدنيا مجرد كلام.. الحقيقة الوحيدة التى أعيشها بقلبى هى حبى لك.. صوت قلبى يغطى على كل شىء ويحيله إلى وهم.. كل شىء يبدو لى الآن وهمًا.. كل شىء ما عدا حبى لك.. بينى وبين الدنيا ستار يحجب عنه كل شىء.. حياتى فى هذه اللحظة تشبه غرفة مبطنة بالمرايا، كل بقعة فيها تعكس

صورتينا نحن الاثنين.. ولا شىء سوانا.. لا شىء سوانا.. نعم.. أنا لا أشعر بشىء سواك.. أنا أعبدك.. أنا مجنون بك..

يقبلها فى صدرها.. فتسبل جفنيها وتسترخى فى شبه إغماء.. وقد أحست أن الأمر قد خرج من يدها إلى الأبد.. وأن كل شىء أصبح مباحًا.. وممكنا.

* * *

بعد مرور عشرة أعوام..

العشيق والزوج يلعبان النرد ويتبادلان حديثًا وديًا.

الزوج – أنا لا أفهم ماذا يبقيك إلى الآن بلا زواج.. أتظنها شطارة.

– شطارة طبعًا.. فأنا متزوج ولكن مجانًا.. (يسكت لحظة) ولى أولاد أيضًا.

– وهل هذه هى الشطارة فى نظرك.. أن تعيش كاللص تسرق من كل مطعم لقمة.

– تأكد أنى لا أسرق.. وإنما أنا مدعو فى هذه المطاعم.. وأكثر من هذا أنهم يحلفون علىّ لأشارك معهم فى كل طبق.

– أنت مخدوع فى نفسك.. أنت الآن فى الخمسين من عمرك ولا بيت لك ولا أسرة ولا حقوق.. مثل الكلب

الضال.. وحينما تطمع فيك زوجة خائنة.. فإنها تطمع فيك باعتبارك بقشيشًا.. مجرد بقشيش.. قرش زيادة فى مكاسبها كزوجة وأم وكامرأة لها حقوق.. وبعد أن تنفقك فى ساعة انبساط ترميك مثل العملة الماسحة.. وفى النهاية تعود إلى بيتك فلا تجد لك بيتًا.. والعمر يتقدم بك ولا حقوق تتراكم لك عند أحد.. بالعكس خسائرك هى التى تتراكم على دماغك كل يوم.

– (فى غيظ) أليس من الجائز أن تكون أنت المخدوع.. من أين لك الضمان بأن بيتك لك وحدك.. وأولادك هم أولادك ؟

– أنا أعرف رأيك فى كل النساء.. إنهن جميعًا خائنات.. والرجال جميعهم مخدوعون.. وأعرف رأيك فى كل شىء بأنه أكذوبة.. ولهذا أشعر بالشفقة عليك لأن آراءك كانت دائمًا أكبر عقاب لك.. ولم تكن عقابًا لنا.. أنا مثلا لا أفكر ماذا تفعل زوجتى إذا تغيبت ساعة خارج البيت.. لأن زوجتى قطعة من بيتى.. وبيتى مجموعة من الروابط والواجبات.. ومن شأن هذه الروابط أن تصلح نفسها كلما أخطأ واحد منا.. والخير دائمًا يتغلب على الشر مع طول الزمن والعشرة.. ونحن لسنا ملائكة لنحاسب بعضنا بعضًا.

أتظن لو أنك كنت الأب غير الشرعى لابن من

أولادى.. أيكون ابنك.. أبدًا.. إنه يكون ابنى.. بالرغم من أى ادعاء تدعيه.. لأن البنوة ليست حقا يولد فى جرسونيرة.. وإنما البنوة عشرة وتربية وحب..

وتصور نفسك فى النهاية، وأنت محروم من كل أولادك. وليس لك عليهم حقوق.. ولو قلت لواحد منهم.. أنا أبوك.. فإنه يبصق فى وجهك.. وهذه هى الشطارة التى تدعيها.

أنا لم يحدث أن اعتبرت نفسى شاطرًا.. ولم يحدث أن اعتبرت زوجتى مثالية.. أبدًا.. أنا حياتى الزوجية بدأت بالنكد والشقاق.. ولكنى كسبت زوجتى فى النهاية.. عاملتها بحب واحترام وثقة.. ولم أفكر فى مرة أن أشك فيها.. اعتبرتها لصة وسارقة ولكنى أودعتها مالى وثروتى وكرامتى ولم أشك فيها.. وكانت النتيجة أنها أحبتنى فى النهاية. من الجائز أنها سرقتنى مرة.. ولكنى واثق من أنها خجلت من نفسها فى المرة الثانية.. ثم كفت عن السرقة.. لأنها أحست إنى أحترمها.

مالك تحملق فى وجهى هكذا.. العب.. ارمى الزهر..

– «فى ارتباك» أصلها شيش بيش ولا أعرف أين أضع القشاط.

– كيف لا تعرف وأنت الشاطر.. وحياتك كلها لعب فى لعب.. ضع القشاط فى أى مكان.. إن أى مكان مثل الآخر.

- هل تعتقد أن زوجتك الآن لا يمكن أن تخونك.

- أعتقد أننا كلما كبرنا.. فنحن نكبر على الأشياء الصغيرة فى نفس الوقت.. ولسنا مثلك نصغر على الأشياء الكبيرة.. هذا منطق لا يفهمه إلا أصحاب البيوت.. منطق بعيد على أصحاب الخرابات من أمثالك.

- أنت قليل الأدب.

- أنا قليل الأدب.. وماذا تقول عن نفسك.. يا قليل كل شيء.. ومع هذا فاعذرنى.. فقد تطاولت عليك.. أشفقت عليك من غرورك فأردت أن أفتح عليك الدش لتفيق على نفسك وعلى حقيقتك.. فقد يكون هناك وقت.

- (يفكر فى أشياء أخرى).. نعم قد يكون هناك وقت.. ومن الضرورى أن أتعجل حالى قبل أن يمضى الوقت إلى غير عودة.. كلامك فى محله.

- العب.. ارم القشاط.. من فينا الغالب أنا أم أنت.

- لا أعرف.

بعد الحديث بيوم.

العشيق والزوجة منفردان فى إحدى غرف البيت والزوج غائب.

العشيق – فاطمة، سوف أنتظرك الليلة، لابد أن تأتى.

- ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله.. انت تعرف أن هذه الحكاية انتهت من زمان.. وأنها كانت لحظة ضعف.. ندمت عليها وانتهى كل شيء.

- ولكنى أحبك.. ما زلت أحبك يا فاطمة.

- هل جننت.. ما هذا الحب الذى تتحدث عنه.. وما مناسبته؟

- هل نسيت ما كان بيننا؟

- وماذا كان بيننا يا أحمد؟. لقد كان بيننا كذبة وخدعة.. وانتهت.

- لا تقولى هذا.. لا تشوهى اللحظات الجميلة التى عشناها معًا.

- (تضحك فجأة) أى لحظات جميلة أيها المجنون.. هل تفهم حقًا ما تقول، هل تدرك متى.. وأين.. وكيف تقوله؟

مثل هذا الكلام كان معقولا منذ عشر سنوات.. كان له جو موسيقى ونور أحمر، وكانت هناك شابة صغيرة طائشة تستمع لك.. فى هذه الظروف كان مثل هذا الكلام له معنى وله جدوى.. أما الآن.. وفى بيتى.. وفى الصالة.. تقف لتقول هذا الكلام المضحك.. وشعرك منكوش وشايب.. لا شك أنك جننت.

– (فى غيظ.. وقد بدأت تتجمع الدموع فى عينيه.. وقد عز عليه أن يكون محل سخرية) لم أكن أتصور أن تكلمينى هذا الكلام فى يوم من الأيام.

– أنا أدرك لماذا أنت متأثر إلى هذه الدرجة.. لأنك أصبحت عاشقًا عجوزًا.. لم تعد حصان الرهان كما كنت فى الماضى.. سقط حقك بمضى المدة وأفلست وسائلك.. لكنى ما ذنبى.

– لابد أن أراك اليوم..

– حاول أن ترى نفسك أولا فى المرآة.. وعد إلى عقلك.. كفى جنونا..

– أنا أعرف أن عشر سنوات مضت منذ ذلك اليوم.. ولكنى ما زلت أحبك.. وما الفرق.. بضع شعرات كانت سوداء فأصبحت بيضاء.. ما الذى يمكن أن تغيره هذه الشعرات؟

– أنت مغرور.. كل حياتك غرور فى غرور.. إنك لم تحب أحدًا.. لقد كنت دائمًا تحب نفسك.. ما الذى جعلك بعد عشر سنوات تعود فجأة لتقول.. أريد أن أراك. أهو الحب.؟!

لا.. إنه الغرور.. النزوة المتسلطة عليك بأنك الفتى الأول الذى لا يرفض له طلب.. إن علاجك الوحيد هو

المرآة.. اجلس أمامها فى الجرسونيرة كل ليلة.. وتفرج على نفسك.. على العشيقة الوحيدة التى أخلصت لها طول عمرك.. أنت مسكين..

يفاجأ بهذه الكلمات.. وينخلع لها فؤاده.. ربما لأنها صادقة.

يصمت ويتخلل شعره بأنامله ليخفى ارتجافها.

يدور المفتاح فى الباب ثم يدخل الزوج فى خطوات بطيئة.. شكله يدل على أنه مريض.. ويده على بطنه.. وهو يتلوى من مغص حاد.

– فاطمة.. قربة الماء الساخن.. على عجل.. أرجوك.. (ينظر إلى أحمد).. أحمد.. مالك واقفا هكذا تحملق فى المرآة.. تتفرج على جمالك السابق.. فتاك يا ولد فتاك.. لم يبق إلا أن تصبغ شعرك وتصبح جيمس دين.. ما أشد ما يحرك منظرك إشفاقى.. إنك تذكرنى بأرتيست الحرب التى راحت أيامها.

قربة الماء الساخن يا فاطمة.. آه يا بطنى.

يتحول البيت فى لحظة إلى خلية نحل محورها الزوج ومن حوله حلقة متماسكة من الأولاد والبنات والزوجة.. وفى كل عين لهفة.. ودمعة حائرة.. وسؤال قلق.

إنهم جميعًا مشغولون بأبيهم.. وكل واحد يحاول أن يسبق الآخر إلى تلبية طلباته. وهم ينسون العشيق الذى يتقلص إلى شبح واقف فى الظل.. لا أحد يلحظ وجوده.. مجرد كلب جربان معدوم الحقوق.. حتى الابن الذى يدعى أبوته يبكى أمامه على رجل آخر.

وهو ما يزال ينظر فى المرآة.. باحثًا عن رجل قديم كان يعرفه منذ عشر سنوات.. رجل كان ينتصر دائمًا فى كل معركة.. ولكنه لا يجده.

ولعله يشك الآن أن هذا الرجل كان موجودًا بالمرة.. وأنه انتصر انتصارًا واحدًا حقيقيًا.

صاحب الجلالة

وراء الكواليس.. الرواية لم تبدأ بعد والستار مسدل.. والممثلون فى ثيابهم المسرحية يروحون ويجيئون يهمسون بأدوارهم.. أحد الأبطال فى ثياب الكاهن لا يفكر فى دوره إنما يتحدث عن حماته.. وعن أجور المساكن.. ومصاريف الأولاد.

الملك يجلس بثيابه الفاخرة على صندوق سكر مقلوب يصغى إلى حديث الكاهن ثم يهمس:

– إدينى نص الساندويتش اللى فى إيدك.

– ما تبعت يا أخى تجيب لك ساندويتش من البوفيه وتبطل أمور الشحاته دى.

– ادينى قطمة طيب.. قطمة.. أعوذ بالله.. هو أنا باطلب

عزبة.. دنا باطلب قطمة.

- ما انت واكل معايا الضهر.. لحقت تهضم الأسمنت اللى كلناه.

- واكل معاك مين.. إنت مسطول.. دنا هنا من الصبح على لحم بطنى.. قاعد أحفظ فى البروفة وأمثل فيها لما اتنبح حسى.. عمال أزعق وأقول.. طيفون طيفون يا وزيرى الأبله أما زلت ترصد النجوم.. وتقرأ كتاب الموتى عن الغيب.. ها.. ها.. ها.. أنت نعسان.. أفق.. افتح عينيك جيدًا.. لا غيب هناك... ليس هناك سواى أنا وأنت.

وطول النهار على الحال ده.. قاعد مربوط قدام المخرج زى مكنة الغنا.. يدورنى بإيده.. أقف وأقول.. ها.. ها.. ها.. إنت نعسان.. يروح موقفنى تانى.. ويقول لا.. مش كده.. بصوت واطى شوية ومليان.. وعريض.. وبلاش ها.. ها.. تلات مرات.. كفاية مرتين.. ويروح مدورنى تانى.. وأنا قاعد بطنى تزغور وتمغص.. وتقرص.. وكل ده عشان الفن.. الفن.. شفنا الفقر عشان الفن.. وشحتنا عشان الفن.. والآخر شفنا الجوع.. ولسه.. ياما حانشوف..

تصدق بالله يا أحمد.. مش أنا قاعد قدامك دلوقت وباضحك.. لكن بيتى بيتحجز عليه.. وعفشى بيتباع بالمزاد العلنى، والناس واقفين فى الحوش كل واحد يزود على

التانى.. ناس ما أعرفهمش بياكلوا لحمى ويشربوا دمى ويبيعوا حياتى.. وبعد الحفلة حاروح مالاقيش لى بيت.. مراتى مطلقة فى بيت أبوها.. وأودة النوم على الخشب..

صعبان علىّ الفار اللى كان كل يوم بيتعشى معايا.. مش حايلاقى أكل النهاردة.. ذنبه إيه الفار.. مسكين.. مسكين.. أصله فار أرتيست.. لازم يجوع زى صاحبه.. فار فقرى.. ها.. ها..

إدينى قطمة بقه من السندوتش.. بطنى بتقرص يا سلام ده انت فرعون صحيح.. لازم عاوز تتقن دورك يا ناصح.. حمى الفن برضه.. مش كده.

يشد شعره من الغيظ.

- الفن.. الفن.. أروح منه فين..

ينظر فى الساعة..

- دورى جه. أما أقوم بقه.. وعوضى على الله فى الساندوتش.

- يشد قامته ثم يقف منتصبًا.. دماغه تكاد تخرق السقف.. ويرسم على وجهه عظمة المِلكية وجلالتها وجبروتها.. ثم يخطو إلى المسرح فى خيلاء وقد أمسك بصولجان الملك فى يمناه.

تمر دقيقة ثم يسمع صوته الجهير الممتلئ يهز جنبات المسرح:

- أين حكيم القصر.. أين شيخ الكهان.. أين حامل أختامى.. أين قائد جندى.. أين أولياء الأمر فى منف ليسمعونى.. إنى أفتح خزائنى اليوم ليفيض ذهبى وخبزى وقمحى على كل مصر فى طول البلاد وعرضها حتى لا يبقى على الأرض جوعان.

إنى آمركم بهذا.. أنا ملك مصر المعظم.. وواهب الطعام.. والخبز للجميع.

يبتسم صديقه من خلف الكواليس وهو يصغى إلى كلماته.. وتتندى عيناه بالدموع.

جرسون

ينى جورجيادس ميخاليدس بسكاليدس جرسون.. إنسان غير مهم.. فالمجتمع يستطيع أن يعيش بدون جرسون.. والأرض تستطيع أن تدور حول نفسها كل يوم كالمعتاد بدون جرسونات على سطحها.. ولكن ينى جورجيادس ميخاليدس ينظر إلى المسألة نظرة أخرى جدية.. ينظر من خلال فوطته فيرى الدنيا كالبار الكبير لا يستطيع أن يستمر لحظة واحدة بدون جرسون..

من السهل عليه أن يفهم حياة بدون ماء.. ولكنه لا يستطيع أن يفهم حياة بدون بيرة.. وأسعد لحظاته حينما يتلفت حوله فيجد عشرات من السكارى هو الوحيد

بينهم الذى يحتفظ بوعيه.. أى تضحية أن تكون زامر الحى.. ولا تطرب.. أن توزع الانبساط والضحك على الناس وتقنع بالعبوس، والتجهم وعـد الطلبات.. ولكنها المهنة الإنسانية.. لقد ولد يجرى فى عروقه النبيذ.. ولد جرسوناً عريقًا من البداية.

وأنت إذا دخلت عليه البيت الآن وجدته يثرثر إلى زوجته كاترينا فى سيل من الكلمات الرومية التى تتساقط من فمه كالفقاقيع..

وأنت لن تفهم شيئًا من هذه الهستريا، ولكنك سوف تحس أن ينى جورجيادس ميخاليدس سعيد.. وأنه قد أفرغ نبيذ البار فى جوف الزبائن..

وسوف يخرج ينى جورجيادس أنيقًا رشيقًا لامع الشعر.

إنه ذاهب إلى البار وقلبه خاشع.. كأنه ذاهب إلى صومعة أو معبد.. وهو يترنم فى الطريق بنغمة راقصة.

واحد زبيب قبرصى دوبل.. تلاتة ويسكى بالصودا.. ياتينا.. ويمط فى كلمة ياتينا.. ويتأود.. فهى اسم البارمان.. صراف الخمور.. وموزع اللذات.. وحبيب العمر..

ما أصغر الدنيا.. بارمان من جنوه وجرسون من أثينا فى بار بمصر.. جغرافية العالم على مائدة واحدة..

ويدخل البار كعادته.. فيلقى ابتسامة عريضة على كل الغرباء كأنه يعرفهم من سنين.. ثم ينظر إلى الركن.. هذا هو الشاعر والى، وحوله ثلة من الشعراء المعاتيه يشربون، والشاعر يلوح بذراعيه ويقول شيئًا، والجالسون من حوله يصفقون وهو لا يفهم إلا كلمة يرددها الشاعر بين وقت وآخر.. هى كلمة.. خمرة.

يا خمرة يا ملهمة يا عصير النفوس.
يا خمرة يا مجرمة يا طاحونة فلوس..
بتنورى المخ زى الفانوس..
وبتاكلى فى الجتة زى السوس
يا خمرة..
يا دم.. جوه الكئوس
مين اللى باعك..
يا ساعة ناقصة التروس..
بتوقف العمر قبل الأوان..
يا ساقى هات السم هات الشراب
هات السبرتو، ولع الأعصاب
هات العذاب..
أنا جاى أبيع الذهب..
بسعر التراب..
وأبيع سنين الشباب

من غير تمن..
يا ساقى.. هات.. هات..
يا خمرة.. أيوه تمام يا مسيو والبى هو ده الشعر الأصولى..

ويضيع الشعر فى الضجة، وفى صيحة ينى التقليدية.. اتنين قبرصى دوبل.. ياتينا.. والفوطة تتأرجح فى ذراعه وهو يتلوى كمصارع ثيران، والجو يعبق بالدخان.. والعطور الباريسية ورائحة المزة والشواء..

وفى ركن قصى مظلم يجلس شاب مع فتاة وهو يكاد يحيطها بذراعيه، ويكاد يقبلها وهو يتكلم، وينى ميخاليدس يتراقص حوله كالذبابة، ويملأ له كأسه كل دقيقة.

– اشربى يا قمورة.. دى القزازة لسه بحالها..
– أنا دماغى بتلف يا فؤاد.. وعينى بتطلع نار..
– أنا عاوز النار دى يا حبيبتى.. أنا روحى تلجت من البرد، من الوحدة.. أنا عاوز النار دى عشان تدفينى..

– هىء إنت وحيد. إنت.. يا نارى منك.. يا ويل اللى تقع فى إيديك، بتاكلها وتتعشى بيها.. يا ديب إنت..
– أنا ديب أنا؟
– أيوه ديب بتاكل الفراخ.. هىء أنا بحبك يا ديب..

– وأنا بحبك يا فرخة..
– وأنا بحبك يا ديب.. أنا.. أنا.. تعبانة.. عاوزه أقوم..
– نروح فين؟..
– نروح بعيد عن الناس.. فى الخلا.. عاوزه أضربك واقطعلك هدومك..
– وبعدين؟..
– معرفش.. بعدين يا ديب..

ويضحكان ويتمايـلان وتتلامس الخـدود وتضيع الضحكات فى الضجيج، وفى طرقعة الزجاجات التى يفتحها ينى..

وفى ركن مظلم.. رجل ثان لا يشرب وإنما يحرق التبغ وينفث الدخان..

إنه يجلس وحده منذ ساعة.. يشرب القهوة.. ويمز بالسجائر، وقد شحب وجهه فأصبح كتمثال من الصلصال الأصفر.. وتقاطع عليه النور والظل كلوحة بارزة من الرسم التكعيبى..

وينى لا يهمه من هذا الرجل إلا أنه لا يشرب.. لا يريد أن يفقد وعيه.. وهذه صفعة لينى وإهانة لكرامته.. وهو لهذا يروح ويجىء ويتأرجح، وقد زاد من ابتسامته

إلى الضعف، وبالغ فى انحناءاته حتى كاد يدور كالبرجل حول نفسه، ولكن دون جدوى.

لقد رفع الرجل إلى فمه كوبًا من الماء المثلج، ولا شىء غير ذلك.. أهو فنان.. أهو شاعر.. أهو فيلسوف.. أهو مجنون.. أهو رجل نصاب.. أهو تاجر مفلس.. أهو زوج مخدوع؟. ولكن هؤلاء هم الذين يشربون..

ليس هناك إلا تفسير واحد.. أن يكون جرسونًا.. جرسونًا من الهند أو الحبشة أو مراكش أو اليونان أو أى مكان على الأرض.. ليذهب إلى الشيطان إذن.. إنه لا يهم ينى فى شىء..

والليل يتقدم والموائد تنفض ولا يبقى إلا ماسح الأحذية وبائع اللوتارية وبائع الفستق.. ورجل مقطوع الساقين يزحف على قطعة من خشب ذات عجلات عند الباب.. ويمد يده لينىْ يطلب إحسانًا فيصيح ينى فى شراسة:

– انتى مسكتو واحد جنيه النهارده من الشحاته.. انتى أغنى منى.. الخشبة دى محشى فلوس، والطاقية دى محشى فلوس.. انتى تبنى عمارة من ينى.. انتى تخرب بيت ينى.. امشى يالالا.. امشى.

وهو يدخل البار ويجمع الجرسونات ويتقاسم معهم البقاشيش، ثم يخلع اللبس الرسمى ويرتدى لبس الخروج

ويغلق البار، ويسير فى الطريق وهو يصفر.

– خريستو زمانتو راح البيت.. بيقفل البقالة بدرى.. مغفل مفيش مخ.. لازم يفتحه لنص الليل.. وكاترينا زمانتو نام زى الجاموسة.. وكاتى وستلا زمانتو بيرقصوا لسه فى الكباريه.. بنات تمام.. ولاد ينى، أصولى دول.. بيمسكو ميت جنيه فى الشهر.. وميشو حمار قليل الأدب.. أقول له افتح دكان.. افتح دكان برسيم افتح دكان سبارس.. افتح دكان زفت.. افتح دكان قطران.. فايده مفيش.. مخ خشب.. موش ابن ينى ده موش ابن ينى.. أوخ.. أوخ.. من ميشو.

دقة قديمة

قادنى الباشكاتب العجوز إلى غرفته وهو يفتح ذراعيه.. ويكاد يأخذنى فى حضنه:

– والله مراحب.. والله سلمات. شايف أودتى واسعة ازاى زى ملعب الكورة.

وابتسم فى بساطة وهو يدير رأسه نحوى ويفتح فمه فيبدو طقم أسنان يهتز داخله:

– تعرف بقالى كام سنة هنا؟.. تلاتين سنة بالتمام.. اتفضل.. اتفضل.. أجيبلك قهوة.. حاجة ساقعة طيب.. ولا ساقعة كمان.. طب خد قزقز.. يا سلام.. وجاى من

المنيا طوالى.. ده مشوار مليح.

وبدأ يقزقز ويضع فى حفانى كبشة من اللب.. وكان يقزقز ويتكلم ويضحك ويهز رجليه ويديه فى وقت واحد.. وأنا أتأمله فى استغراب.

كان كالح البشرة قصيرًا بطينًا.. لا يكف عن الحركة.. وعجبت كيف يعيش إنسان فى غرفة مغلقة لا تدخلها الشمس ثلاثين سنة متوالية يزاول عملا واحدًا لا يتغير كل يوم.. ومع ذلك يجد القدرة على الضحك.

وبدأت أختنق برائحة التراب والهواء الفاسد.

– الهوا مكتوم أوى فى الأودة يا صبحى أفندى.. مش ممكن نفتح شباك.

– شباك إيه يا راجل.. ده الدنيا تلج.

وكان التراب قد وصل إلى حلقى فبدأت أعطس.

– أصل التراب هنا زى النشوق.. أنا بقالى تلاتين سنة أعطس زيك كده.

وسكت قليلا ثم أردف:

– يا سلام.. من المنيا!.. ده مشوار مليح.. كنت ابعت لى يا أخى وأنا كنت قضيت لك حاجتك وجبتها لحدك فى المنيا.. بدل ما تتعب التعب ده كله.

- يا سيدى كتر خيرك..

- ليه.. كتر خيرى ليه.. دنا نفسى أسافر.. دنا قضيت عمرى ما غيرتش الكرسى إللى قاعد عليه.. ده أنا عندى المنيا دى زى أوربا.. يا سلام.

وقام من كرسيه.. وهرش قفاه ثم أخذ يتلفت مناديًا:

- يا مندور.. يا مندور.. يا خويا سايبنى هنا لوحدى زى الغراب.. ولا ساعى.. ولا فراش.. ولا حاجة.. يعنى لازم أحط الكرسى واطلع أجيب الدوسيه من عش السحالى إللى فوق.. نهايته.. عشان خاطرك.. أصلك راجل طيب.

وترك مكتبه ورشق القلم الكوبيا فى أذنه وأخذ يحملق فى الحائط ويعد على أصابعه:

- وسيادتك بقى من مواليد كام؟

- من مواليد سنة خمسة.

- يا سلام.. يعنى من أيام هوجة عرابى.. دنت أتاريك راجل مخضرم.. ده صحيح الدهن فى العتاقى.

مين يا خويا اللى بيعكرت ورا الدولاب ده.. يا وله اتكن بلاش شقاوة.

- هو فيه حد معانا.. والا إيه؟..

وضحك الباشكاتب.. وظل فمه مفتوحًا برهة.. وعيناه الساذجتان تحدقان فى وجهى من تحت النظارة.

- تعال يا حودة سلم على عمك.

ونقر على المكتب.

- اظهر وبان.

وأطلت عين صغيرة من خلف الدولاب.. أعقبها وجه غطاه التراب وطفل يتدلى قميصه الأحمر خارج البنطلون.. وقد احتضن عود قصب:

- تعال سلم على عمك.. واديله عقلة قصب.

وتقدم منى الطفل فى خجل وقدم لى عود القصب كله.. وكان وجهه لطيفًا بريئًا.

- ده يبقى بسلامته محمد ابنى.. كل يوم يا سيدى لازم يشبط فىّ ويعيط.. ولازم ييجى معايا الديوان.. عاوز يطلع باشكاتب.. وتبقى له إدارة وإمارة زى أبوه.. الأقرع.. الزلبطة.. ده.

وأخذ يمسح على رأس طفله.. وكانت محلوقة بالموس.. وناعمة كالعجورة.

- أنا دايمًا أحلق للولاد نمرة واحد.. مش أحسن برضه نضافة.. وأنا كمان بحلق نمرة واحد. شوف..

وخلع طربوشه ومسح على رأسه:

- الواحد تبقى رأسه هاوية..

وضحك فى سذاجة.. وفتح درج المكتب وأخرج منه خيارة.. دسها فى يد الطفل:

- خد ولا تقولش لحد.. اجرى اقعد على المكتب بتاعك.. وحرر الدوسيه.. ورينى الشطارة.

ونظر الطفل إلى الخيارة مترددًا.. ثم اختطفها.. وهرول مبتعدًا.. وهو ينظر إليها كأنه لا يصدق أنها أصبحت ملكه.

وانكفأ صبحى أفندى على مكتبه من جديد والضحكة ما زالت تلعب على وجهه.. وأخذ يدندن أغنية قديمة.

وأعجبه صوته فأخذ يمط فى المقاطع ويتأوه على طريقة الحمولى.

وبالرغم من أن الغرفة كانت مقبضة والجو راكدًا.. والتراب يزكم الأنوف.. فقد بدأت أبتسم، وانتقلت العدوى إلىّ فرحت أهز قدمى على النغم القديم.. وغاب هو فى دوامة الفن وأخذ يطوح رأسه.

- يا سلام.. إيه الطرب ده كله يا صبحى أفندى.. ده انت سلطان.

- يا سيدى الله يخليك.. ده بس من ظرفك.. شوف يا أستاذ.

وأدار رأسه إلى ناحيتى.. ونقل القلم الكوبية من أذن إلى أذن:

- شوف.. اوعى تصدق ان فيه غنى دلوقتى.. ده كلام.. الغنا كان زمان.. كان المغنى يقعد على التخت ويقول.. يا.. يا.. يا.. يا أى حاجة تيجى على مخه.. إنما طرب.. متقدرش تقعد على بعضك.. ويمكن يقعد يقول.. يا.. يا.. يا.. لغاية الفجر وبعدين يقول.. يا قمر.. ومع كده ما تقدرش تسيبه.. وتبقى قاعد عطشان ومترضاش تشرب.. فن.. فن.. مش الكلام الفاضى المايص بتاع دلوقت.. تفتح الراديو.. تلاقى واحدة بتقولك.. تعالى يالله.. يالله.. تعالى يالله.. يالله.. تعالى يالله فين عاوزه أفهم.. تعرف تقوللى فين.

وعاد يهرش قفاه وينقل القلم الكوبية من أذن إلى أذن ويقلب الدوسيهات.

- تعالى يالله.. فين.. تعرف تقوللى يا مبارك..

ونظر إلىّ من تحت نظارته ثم عاد إلى الدوسيهات:

- زمن.. هو أصله زمن.. نهايته.. نرجع لشغلنا أحسن.. بتقول يا سيدى اسم الكريم.. صالح.. صالح.. الـ.. الشبكشى.. هيه.. هيه أيوه يا سيدى آدى الملف اللى عايزينه.. أنا عطلتك شوية.. مش كده.. لكن خلاص هانت.. أصل اخواننا هم اللى بيكركبوا علىّ الشغل الكتير

ده.. كل حاجة خد يا صبحى أفندى.. هات يا صبحى أفندى.

- إنت أصلك راجل أمير..

- يا سيدى ده من ظرفك.. يا سيدى ده من أصلك..

وغاب مرة أخرى فى الورق يكتب ويخرج طرف لسانه من الحماس.. ويمسح رأسه ويتطوح.. ثم رفع عينيه أخيرًا فى ارتياح:

- الحمد لله.. خلصنا.. يالله بينا بقى.

وبحث عن الطربوش حتى وجده خلف الدولاب..

- أما شيطان صحيح.. بقى يا واد مش لاقى حتة ترمى فيها مصاصة القصب غير طربوش أبوك.

وسحب طفله من أذنه.. وعاقبه بقبلة رنانة على خده:

- ترمى الزبالة فى طربوش أبوك يا كلب.. أنا لازم أرنك علقة سخنة.

ولم أر على وجهه بوادر لهذه العلقة الساخنة.. بل كان وجهه سمحًا طيبًا يفيض بالإشراق.

وحينما وقف على الباب يحادثنى ويروى لى متاعبه كان ما يزال يبتسم.

- تصور يا سيدى.. أن المفتش جه وجرد المخزن وطلع

عجز فى العهدة مية وخمسين جنيه خصمهم منى.. وبقالى سنتين بقسط فيهم.. حاعمل إيه.. أصلى راجل باشتغل بالله.. أمضى يا صبحى أفندى.. أبصم يا صبحى أفندى.. استلم يا صبحى أفندى.. سلم يا صبحى أفندى.

كان وجهه صافيًا وهو يتحدث عن الظلم وعيناه مليئتان بالطيبة.

وخيل إلىّ أن أى عذاب لا يقوى على هزيمة قلبه الطيب..

وحينما مضيت وحدى إلى باب المديرية.. ووقفت أدخن تحت الجميزة العتيقة.. كنت أفكر فى هذا الإنسان.. وأتساءل.. ماذا جنى فى مقابل طيبته.

وكان الموظفون يخرجون جماعات صغيرة ويتفرقون عند الباب.. ثم شاهدت رجلى الصغير يدور فى الحوش وقد تعلق الطفل ببنطلونه.. وكلما خطا خطوة.. اجتذب رجلا إلى موكبه حتى إذا اقترب من الباب كان قد تحول إلى مظاهرة لا تسمع فيها إلا جملة واحدة تتكرر كل مرة بأسلوب.

مبروك يا صبحى أفندى.. الحمد لله يا صبحى أفندى.. تعبناك يا صبحى أفندى.. تشكر يا صبحى أفندى.. ممنون

يا صبحى أفندى.. اطلب يا صبحى أفندى.. مرسى
يا صبحى أفندى.. جايلك يا صبحى أفندى.. أمرك
يا صبحى أفندى.

وقرأت الجواب على سؤالى.. مكتوبًا على وجوه الناس.

الماء و الزيت

كان يقول لها بانفعال وهو يقبض أصابعه ويبسطها:

- إنى أعيش فى حيرة.. فى شك دائم.. وعذاب.. لقد مرت على علاقتنا سنة.. وما زلت كما كنت فى البداية.. لا أعرفك.. لا أعرف إن كنت تحبيننى أم لا.. ما زال ستار التكلف قائمًا بيننا.. لم تحدثينى بكلمة واحدة عن ماضيك.. عن حياتك.. عن آمالك.. وأحلامك. ما زلت تنظرين إلىّ نظرتك إلى رجل غريب تعاملينه بحذر وتحفظ وارتياب.

وفى الوقت الذى أغير فيه حياتى كلها من أجلك وأترك أصدقائى وسهراتى.. وأعيش فى حلم مستمر أنت بطلته..

أجدك تزدادين بعدًا عنى كل يوم.. وتعاملينني بجفاء.

لقد كان لى أمل واحد طول هذه السنة.. أن أفهمك كما أحبك.. أن أحس بأنك تمنحينني حق الصديق على الأقل فتشركينني فى مشكلاتك..

ولكن ها نحن أولاء غرباء ينظر كل منا إلى الآخر كأنه ينظر إلى كتاب.

إن القبلات التى نتبادلها تشبه الدق على أبواب مغلقة لا تفتح أبدًا، والعناق لا يكاد يختلف عن المصافحة..

إنى ما زلت وحدى.. وأنت ما زلت وحدك..

إننا كالزيت والماء.. نعيش جنبًا إلى جنب فى زجاجة واحدة..

ولكننا لا نختلط أبدًا مهما رجت الزجاجة..

هل هذا هو الحب الذى كنت أحلم به؟..

أريد أن أفتح قلبك لأعرف الجواب.. إن شفتيك لا تتكلمان.

إن الحكم بالإعدام يريح لأنه حكم.. أما الحياة فى القفص أمام قاض لا يحكم ولا يفض الجلسة فهى لا تطاق..

قولى لى.. لا أحبك.. لأستريح..

كان يتكلم بانفعال.. وسكت وهو ما زال يقبض أصابعه ويبسطها..

ونظرت إليه نظرة طويلة مسكينة.. وحاولت أن تتكلم ولكن الكلمات لم تسعفها..

ودمعت عيناها ونظرت إلى بطنها العالية.. إلى الجنين الذى يتحرك فيها منذ سبعة أشهر.. وقالت فى تأثر:

– أنا لا أفهم فى الكلام.. أنا خرساء لا أعرف كيف أدبج الأحاديث.. لا أعرف كيف أصنع أحاديث مزخرفة.. وأقول لك أحبك.. أعبدك.. أهيم بك.. لا أنام.. لا آكل.. لا أشرب..

لقد تعودت أن أصنع لك حياتك دون أن أعلن عن صناعتى. ألا تجد أشياءك مجهزة.. وطعامك معدًا.. وأثاث بيتك نظيفًا.. وقمصانك معطرة؟

ألا تجدنى إلى جوارك وأنت مريض.. ملهوفة عليك وأنت غائب.. فرحة كالطفلة.. وأنت سعيد؟

وهذا الذى صنعته سبعة أشهر من لحمى.. أليس حبًا؟

وأشارت إلى بطنها.. إلى الجنين.. إلى الزيت والماء.. اللذين امتزجا فى أحشائها وأصبحا لحمًا ودمًا..

وبكت فى صمت..

أنا

كان كل واحد فى الصالون الأنيق يقول.. أنا.. أنا.. أنا..

الجراح الكبير ينفث الدخان من سيجار مدلى من فمه كأنه مدخنة وابور طحين.. ويتلفت حوله فى زهو.. ويلقى الحديث على أصحابه فى كلمات مرصوصة منمقة..

– أنا.. أنا.. أنا لما كنت فى مستشفى هيدلبرج فى ألمانيا.. عملت العملية دى لوحدى ومن غير بنج.. فى خمس دقائق.. لما الجراحين الصغيرين اللى كانوا معايا قعدوا يستعجبوا ويبصوا لبعض.. مش عارفين طبعًا إنى عملتها ألف مرة فى القصر العينى قبل كده.. وإنى كنت بعملها وأنا

مغمض.. وأفتح بطن العيان كأنى بأعزف على البيانو.

ولم يكن واحد من المستمعين يتتبعه، فقد كان كل منهم يتعجل دوره ليحكى شيئا عن انتصاراته هو الآخر ولذلك لم يكد يفرغ من حديثه حتى انطلق رجل عجوز يجلس إلى جواره يلوح بيديه قائلا:

– أنا ما اعرفش فى الجراحة.. أنا راجل مهندس.. لكن حكاية التمرين دى صحيح.. أنا فاكر لما وضعت تصميم عمارة الأسيوطى.. رسمت الكروكى فى نص ساعة وأنا باشرب الشاى الصبح.. وبعدين على العصر كان مكتب التصميم شغال زى خلية النحل.. والمهندسين مكفيين على الورق ينفذوا الخطوط اللى رسمتها.. وبعد سنة كانت العمارة طالعة زى الزرع الشيطانى.. عشرين دور فوق الأرض.. وكل واحد يبحلق.. ويقول ازاى.. ازاى عملها.. ازاى عملها الجن ده..

ولم يرق للمحامى أن يكون الصامت الوحيد فى الزفة.. فهرش رأسه هو الآخر وما لبث أن قال:

– فى كل حاجة التمرين مهم.. مش بس الجراحة والمبانى.. فى القضايا كمان.. أنا فى القضية الآخيرة اللى هزت البلد.. استلمت المتهم فطسان من ايد النيابة.. معترف.. وماضى.. وباصم كمان.. ومع كده كسبت له

القضية.. ليه.. لأنى عشت فيها.. وعشت فى أمثالها ألف مرة قبل كده..

وكانت زوجة المحامى طوال الوقت تنقر على كرسيها فى ضيق..

- انتو الحقيقة ماسبتوش لنا حاجة يا رجالة.. لكن ايه رأيكو انى أنا حاطلع أشطر منكم كلكم.. وانى حاعمل تلاتة زيكو كمان عشر سنين.. حايبقى عندى كمان عشر سنين ابن جراح وابن محامى وابن مهندس.. أنا ولا أنتم بقى؟..

وكان طفلها يتشبث بها أثناء الحديث ويهمس فى أذنها بين لحظة وأخرى:

- أنا حلو يا ماما.. أنا حلو؟

والقسيس الوحيد بين الضيوف يميل على الخادم.. ويقول:

- أنا عاوز القهوة سادة..

والشاب الأسمر الذى يقف إلى جوار النافذة يهمس إلى شاب آخر بجانبه:

- أنا عاوز هوا.. هوا.. مابيدوروش المروحة دى ليه؟

وفى وقت واحد كان من الممكن أن تسمع أحاديث غريبة لا يمت الواحد منها إلى الآخر بصلة..

- أنا بقولك الحصان ده مش ممكن يكسب.. اوعى تفكر تراهن عليه.. أنا كلامى عمره ما ينزل الأرض انت عارف.

- أنا دماغى بتدق الظاهر الضغط رجع تانى..

- أنا عاوزهم كلهم يطلعوا ويسيبونى أنا والست الحلوة اللى هناك دى..

- أنا مش ممكن أسيب الراجل الندل ده.. الا ما أوديه فى داهية.. أنا لازم أرفع عليه قضية وأدخله السجن.

- أنا اشتريت الأرض من الوقف.. كانت خرابة.. شوف دلوقت بقت إيه..

- أنا مروح..

- أنا حانام هنا..

- أنا..

كل واحد يقول.. أنا.. أنا.. أنا..

وشعرت بالغيظ وأحسست أن كل واحد من الحاضرين كذاب.. وأنه كذب على نفسه حينما حضر هذه السهرة بحجة الصداقة.. فلا أحد كان يفكر إلا فى نفسه..

واستأذنت وانصرفت.

وعند باب العمارة.. كان البواب يلوح بذراعه فى وجه زميله صائحًا:

– أنا مش آرف أنا عملك إيه.. أجيبك من هنا توديني هنا.. أنا من النهارده ماليش كلام معاك.. أنا بقالى عشرين سنة على الدكة دى ريس البوابين.. وكلامى يسمعه الكبير والصغير.. أنا لازم..

وفى الطريق توقفت عند محل.. أشترى منه بعض لوازمى.. وكنت ما أزال أفكر فى شلة الصالون التى تشبه عقدًا منفرطًا.. كل حبة فى خيط وحدها.. .

وحينما بلغت منزلى.. كان يجرى خلفى صبى صغير يحمل لى اللوازم فى صناديق على كتفه..

وحينما دخلت من الباب.. مددت يدى فتناولت لوازمى وذهبت لتوى إلى غرفة النوم.. وألقيت نفسى على فراشى مرهقاً..

وبعد مضى ساعة تذكرت فجأة إنى نسيت أن أنقد الصبى أجره..

نسيت لأنى أفكر أنا الآخر فى نفسى.. فى الأشياء التى أريدها.. والأشياء التى لا أريدها..

انفرطت أنا الآخر كحبة وحيدة تجرى فى خيط وحدها..

وشعرت بالخجل والألم.. وجززت على أسنانى.. ولم أدر لمن أوجه اللعنة.. لنفسى.. أم للناس..

من المسئول عن هذا..؟

منتهى النجاح

كان المحامى الناجح يمسك بسيجارة زنوبيا ويتلفت حوله مختالا يلقى بكلمة هنا وبكلمة هناك كأنه يلقى باقة ورد ويتحدث فى إفاضة وإسهاب عن مغامراته فى عالم القضاء والقانون.. وعن غزواته فى عالم الحب.. وعن المغناطيسية التى فى شخصيته.. والثروة التى جمعها من لا شىء.. والترف الباذخ الذى يعيش فيه.. والمجد.. والشهرة.. والذيوع.. والـ.. والـ..

وكان الحاضرون ينظرون طويلا إلى الرجل الذى يقرءون اسمه كثيرًا فى القضايا الكبرى.. ويقرءون مرافعاته.. ويطالعون صورته..

وكان الصالون واسعًا.. ولكن صوت المحامى كان يدوى فيه.. فيجعله يبدو ضيقًا:

تصوروا.. أهى القضية اللى أنا داخل فيها دى خسرانة ميه الميه.. قولولى داخلها ليه.. قولولى.. لأن هنا يبان الفرق بين المحامى والمحامى.. أهو أنا أجرى ورا قضية زى دى، وأشتغل فيها بإيديا ورجليا.. ليه.. علشان يوم ما أجيب فيها براءة يبقى أكنى أحييت ميت..

قضية زى دى، ما أطالبش فيها بتطبيق القانون.. ولكن أناقش قانونية القانون.. وأدين القانون نفسه.. وأهزه من جذوره.. ودى هية المحاماة..

قضية زى دى تعوز إنك تلف العالم.. مش تقرأ كتاب.. الكتاب ما يعلمش..

الدنيا.. الدنيا.. اللف والدوران.. هو اللى يعلم..

شوفو بقالى قد إيه فى سلك المحاماه.. أقل من عشر سنين.. ومع كده مفيش بلد مارحتهاش.. إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأمريكا والسويد.. حتى روسيا..

وفى كل بلد لقيت القانون شكل.. والآخر بقى عندى ألف شكل وشكل فى دماغى.. وبقيت أقعد أفك وأركب القوانين على كيفى وأعمل منها براءة..

المحاماه فن.. فن.. شوفوا عبد الوهاب فنان صحيح..

لكن أنا فنان أكبر منه.. باعزف على المنطق زى ما هو بيعزف على العود..

الحياة فى المحاكم لذة.. ومش بس المحاكم.. فى البيت والشارع والمكتب.. شوفوا سنى دلوقت يمكن يقرب على أربعين.. لكن أى واحدة بتعرفنى.. بتحبنى وتتعلق بى ويمكن تسيب شبان صغيرين علشانى.. وتجرى ورايا مش عشان جواز.. أبدًا.. أنا متجوز ودبلتى فى صباعى.. إنما عشان الشخصية.. والخبرة.. واللف والدوران.. والصرمحة..

الناس بتحسدنى وتقول ده مليونير.. أنا صحيح باخد فى القضية ألف جنيه.. وعايش فى قصر وخدم وحشم وعربيات.. لكن أنا مين كمان.. أنا الأستاذ هارون المحامى.

قال هذا ثم بدأ ينقب فى وجوه الحاضرين عن الإعجاب والانبهار.. ثم ابتلع كوب الشاى الذى كان قد برد أمامه.. دفعة واحدة.. وخيل إلىّ وأنا أراقبه فى أثناء هذه الخطبة الحماسية عن نفسه.. انه يترافع.. كما لو كان متهمًا..

وحينما تفرق الضيوف وانفض الصالون.. ولم يبق أمام الأكواب إلا أنا وهو.. رأيت وجهه يتراخى ويستريح.. وكأنه كان يلهث ويجرى طول الوقت ثم بدأ يسير بسرعته الطبيعية.. ثم رأيته يخرج إلى البلكونة..

وفى البلكونة.. أخذنى من ذراعى.. وهمس فى أذنى:

- حضرتك دكتور؟

- أيوه..

- كنت عايز أسألك على حاجة..

وكح.. وبلع ريقه.. ثم أردف:

- فيه طبعًا أدوية جديدة عشان الـ.. عشان الـ.. عشان الـ.. قصدى الجنس.. والـ..

وتنحنح وسلك زوره وفرك كفيه فى ارتباك وعاد يتهته:

- حكاية الحقن اللى عملوها فى روسيا من القرود..

- أيوه..

- أنا بسأل عشان واحد صاحبى يعنى.. مش عشانى.. حاكم إنت عارف إن دى مسألة حساسة.. و..

- وماله.. مافيهاش حاجة..

- يعنى.. أنا خفت لا يروح فكرك.. إنى أكون يعنى

وضحك ضحكة صفراء مقتضبة وأردف:

- طبعًا مش معقول..

ومضغ عدة كلمات فى فمه:

- أنا.. أدينى زى ما انت شايفنى زى التور..

والتقط أنفاسه وأخذ يردد:

- زى التور..

وأخذ يحرك يديه كأنه يرفع ثقلا وينفى عن نفسه تهمة تلح عليه، ثم سكت فجأة وحملق فى وجهى كأنه يبحث عن نجدة.. وبادرنى قائلا:

- بس يعنى تفتكر صحيح.. حقن القرود دى بتنفع؟

وراح يفرك يديه فى ارتباك وتوسل..

ونظرت إلى عينيه فى تلك اللحظة.. فلم أجد الأستاذ هارون المحامى وإنما وجدت رجلا آخر غلبان جدًّا..

كوكو

استديو.. لوحات تخطيطية على الجدران.. تماثيل.. هياكل من الطين لم يتم نحتها بعد.. نسخة رخامية من التمثال الإغريقى الشهير أوديت، هيكل نصفى لامرأة عارية، رأس من الصلصال يعمل فيها الفنان بمطواة، وهو ينظر بين لحظة وأخرى إلى امرأة جالسة إلى جواره.

المرأة - آهاتان هما شفتاى..

الفنان - لا.. إنهما طعم شفتيك، إنى أحاول أن أضع فيهما رعشة الحمى ولسعة النار وعذوبة السكر.. ونعومة الحرير.. إنى أكاد أتذوق الصلصال وأنا أنحته.. ألا ترين لسانى وهو يخرج ويدخل فى فمى.. إنى أنحتك بلسانى.

– أنت وغد.. إن من يسمع هذا يقول إنك تحبنى حقًّا.

– أتشكين فى هذا؟..

– إنى لا أصدق حرفًا واحدًا مما تقوله.. إنى تعسة.. إنى أكاد أحس بهذا الاستديو متحفًا للقلوب الكسيرة.. أكاد أرى كل هؤلاء النساء وهن يدخلن مثلى بقلوب راقصة كالعصافير.. ويخرجن فى النهاية بقلوب ثقيلة باردة كالحجر.. إنك تحول حجارتك إلى نساء.. والثمن ندفعه نحن وحدنا.. بأن نتحول فى بيوتنا إلى حجارة.. ومع هذا فأنا أحبك.. إنى ضعيفة.. ضعيفة.. بل مجنونة.. وأنت وغد..

– حقًّا.. يالى من ذئب.. لم أكن أعلم كل هذا عن نفسى.. دعينى أنظر إلى وجهى فى المرآة..

ينظر فى مرآة مكسورة بالحائط ويحدث نفسه:

– يا لك من ذئب عريق.. كان يجب أن توضع فى قفص يا ولد.. ويغلق عليك الباب.. أما أن تطلق هكذا فى الشوارع تأكل بنات الناس فهذا..

تمسك بيده وتقبلها.. ثم تقبّله فى خده وشفتيه.. يستمر فى حديثه إلى المرآة..

– أما أن تطلق هكذا فى الشوارع يا ولد تأكلك بنات الناس.. فهذا..

تضع يدها على فمه لتسكته ثم تطوقه بذراعيها:

– هذا مستحيل يا آنسة.. كيف أصدق أن دجاجة تقبل ذئبًا فى فمه.. ثم.. ثم تحضنه.. ثم تندب حظها لأنها راحت ضحية..

– لست ذئبًا يا كوكو.. انت حبيبى.. أتفهم.. أنت متوحش فقط، متوحش فى جاذبيتك.. كلامك يلتف حول عنق البنات كالحبل.. ونظرتك تخلع عنهن الثياب.. ثم تقطع فى لحمهن كما تقطع هذه المطواة فى الصلصال، والنهاية إنهن يحببنك.. بل يعبدنك ثم يكتشفن أن جنسهن كله يحبكَ.

– وهذه هى الوحشية..

– نعم وهذه هى الوحشية..

– وأنا فى النهاية مبذول من أجل الناس.. وليست لى نفس أملكها.. أليست هذه مأساة.. أنت تطلبيننى لنفسك.. وأنا لا أملك حتى نفسى، لأعطيها لك..

يعود إلى النحت ثم ينظر إلى عينيها طويلا.. ويغطى عينيه:

– أحس كلما نظرت فى عينيك أنى أنظر خلال نافذتين مفتوحتين على هوة مظلمة.. هوة عميقة..

أريد أن أعرف ما وراء هاتين النافذتين.. أريد أن أضع

فى الصلصال الكلام الذى عجزت عيناك عن أن تقوله.

أريد أن ألمس المجهول خلف الحياة.. أريد أن ألمسه.. ألمسه..

يحس بالدوار فيضع يده على عينيه:

- املئى لى كأسًا من نبيذ بوردو الجيد..

تملأ له كأسًا.. فيشربه دفعة واحدة.. ويطلب كأسًا أخرى..

يظل يشرب حتى تثقل أطرافه.. وينظر إلى الأستديو.. فيبدو فى نظره كجمدانة كبيرة بها وجه واحد يطفو فى النبيذ هو وجه حبيبته..

يمر بيده على جبينها وشعرها.. يقبلها..

- حبيبتى.. لم أعد أصلح لشىء، لقد أصبح رأسى ثقيلا.

يريح رأسه على صدرها.. ثم يغيبان فى حمى من القبل.

* * *

بعد عشرة أعوام..

الاستديو ملئ بالتماثيل.. ما زال تمثال أوديت الإغريقى فى الركن تحت المصباح.. الفنان ينحت كتلة من الجبس.. وأمامه امرأة عارية تمامًا، إنها امرأة أخرى غير صديقته الأولى.

الفنان - أنت تشبهين فينوس التى خرجت من زبد البحر.. أتعرفين بماذا أحس وأنا أنظر إلى جسمك العارى؟

المرأة - أعرف..

- لا.. إنى أحس بشىء آخر غير الذى فى خاطرك.. شىء جديد.. صدرك وهو يخفق.. وبشرتك وهى تتصبب عرقًا.. وعيناك وهما تتألقان بغشاء رقيق من الدمع.. وجفنك وهو يطرف. كل هذا يملؤنى إحساسًا بحقيقة جسمك.. فأنت غدة.. غدة كبيرة تعمل.. أنت الحياة تتنفس، وتتصبب دمًا وعرقًا.. أنت الأرض الخصبة وسنبلة القمح وكوز الذرة الممتلئ..

ينفعل فيقوم من كرسيه.. ويقترب منها.. ثم يلمسها.

- نعم.. أحبك..

يبتسم فى شرود.. ثم يعود إلى تمثاله..

- وأحب هذا أيضًا..

يشير إلى التمثال الذى ينحته.

- ولكنك لا تفعل ما يفعله المحبون يا كوكو..

- إنى أفعل شيئًا جديدًا.. يجب أن يفعل الفنان شيئًا جديدًا على الدوام..

- إن الفنانين أوغاد.. إنهم يفعلون دائمًا الشىء الذى

لا تنتظره المرأة.. إذا تقدمت لهم كعشيقة عاملوها كأخت.. وإذا تقدمت كأخت عاملوها كزوجة..

- ها.. ها.. إنهم ذئاب أليسوا كذلك؟

- ليتهم ذئاب..

- إنهم دجاج..

دجاج بمنقار مذهب..

تنظر إليه بغيظ:

يناولها كأسًا من النبيذ ويتناول هو ترموس تحت المائدة ويملأ لنفسه كأسًا من الينسون المثلج..

* * *

بعد عشرة أعوام أخرى..

الفنان وحده فى الأستديو أمام كتلة من الحجر يفكر ويكد ذهنه:

- أفكر فى تمثال اسمه.. الأم.. أصنعه بدون نموذج.. أصنعه من قلبى.. من أحاسيسى ومشاعرى.. أصنعه من الحنان.. والرحمة والرفق..

سوف يشبه صدرًا عريضًا حانيًا وأثداءً ممتلئة.. ووجهًا يكسوه السلام والمحبة.. سوف يغرى الذى ينظر إليه بأن يضع عليه رأسه.. وسوف يهمس لكل طفل بكلمات طاغور:

أنت فى سواد العين يا ولدى..
أنت فى حنايا الفؤاد..
أنت فى دمى..
أنت فى روحى..
أريد لغة.. لغة صوتها أعلى من الشعر.
يعمل بأزميله فى الحجر..

بعد عشرة أعوام أخرى.. وقد أصبح عجوزًا.. وابيض شعره كالثلج.. نفس الأستديو وقد تحول إلى معرض..

زحام من المتفرجين..

امرأة تتجول هى وزوجها وأطفالها.. وما تلبث أن تقبل على الفنان العجوز مهللة.. ثم تميل على أذنه هامسة:

كوكو.. ألا تذكرنى؟..

يتطلع إلى وجهها ويبتسم فى سعادة:

- أهو إنت يا شقية.. أحقًا تزوجت، وأصبحت سيدة بيت.. لكم أنا سعيد بلقائك..

- أما زلت وغدًا يا كوكو..

- لقد أصبحت غرابًا.. وطارت من حولى العصافير ولم تبق إلا تماثيلها، أتذكرين تمثالك؟..

تنظر إليه فى عطف:

- نعم يا كوكو.. وأذكر نبيذ بوردو الجيد..

تتندى عيناه بالدمع.. ويصافحها فى رقة.. تمضى مسرعة إلى زوجها..

ما تلبث أن تخرج من الزحام امرأة أخرى وتهمس فى أذن العجوز:

- كوكو.. أتذكرنى؟

- نانا الجميلة الرقيقة.. لقد أصبحت سمينة مثل البطة لا أستطيع أن أصدق أن هذه هى الغزالة التى كانت تبكى بلا سبب..

كوكو.. كوكو.. كوكو..

عشرة النساء تمضى كالأشباح.. كالذكريات الخاطفة كل واحدة تتحدث فتبدو كأنها تتحدث من بعيد. ثم تختفى.. كما يختفى سرب من اللحظات.

والآن.. لقد ذهبن جميعًا.. وبقى هو وحده.. وانفض المعرض، وخيم الصمت على الأستديو..

وهو يسير مطرقًا.. يروح ويجىء شارد اللب.. ثم تأخذه نوبة من الانفعال.. فيبدأ فى حديث طويل هامس متهدج مع نفسه.. وهو يشير إلى تماثيله:

- وهذه فى النهاية هى أسرتى.. كلها من الحجر.. أوديت.. إيزيس.. فينوس.. ديانا.. هرمس.. أفروديت.. آلهة الإغريق كلها وأنا على رأسها.. خالق تعس نسيته مخلوقاته..

يقترب من أحد تماثيله:

-أنت يا نادية.. كنت تسميننى ذئبًا.. فأين أنت الآن.. لقد أصبح لك بيت وأطفال ورجل.. وأنا وحيد بين أسرة من الخرس..

كنت فى شبابى كالبار.. تدقين بابى كلما برد الدم فى عروقك فأمنحك كأسًا.. وحينما فرغت زجاجاتى.. ذهبت تبحثين عن بارمان آخر..

كنت كعربة الجلاس فى الصيف.. تجد عابرات السبيل عندى ما يرطب حلوقهن.. والآن.. هأنذا وحيد.. وحيد.. لا أجد من يرطب حلقى الجاف الملتهب..

يقترب من تمثال أوديت:

- أوديت الجميلة.. أنت تفهميننى جيدًا.. أنت تحملين ذكريات ألف عام على كتفيك..

فى عينيك استطاع ذلك الفنان القديم أن يرسم ما لم أستطع رسمه.. ما خلف الحياة..

أوديت الحبيبة..

يمسح على شعرها ويقبله:

– انظرى فى عينى.. هناك.. فى الهوة المظلمة خلف حياتى.. فى روحى.. أرأيت حبى.. إنه حب غريب يعشق الحقيقة ذاتها..

إنه لا يقف عند امرأة واحدة.. وإنما يبحث عما وراء كل النساء وما وراء كل الرجال.. إنه يطلب صميم الحياة.

لقد تعذبت بما يكفى وراء هذا الحب وهأنذا فى النهاية.. وحيد.. وحيد..

إن كلينا من مادة واحدة يا أوديت.. كلينا من مادة الأحلام.. إنى أتمنى أن أفتح عينى فأجد نفسى قد استحلت عمودًا من حجر..

لقد تعبت.. تعبت من إحساسى..

يمسح على شعرها ويبكى كالطفل!.

فهرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَىّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد المتنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٧/٥٩٢٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5419-3

١/٩٧/٣١
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد..

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

دار المعارف

٠١/٠٤٨٠٤٤٠